بانَ

«حكاية»

نورا ناجي

إهداء

إلى فاتيما

علها تفخر بأمها يوما..

إهداء

أبي الذي أهداني القدرة على القراءة قبل أن أتعلم الكلام..

أمي التي أهدتني القدرة على التفكير عندما تتعقد الأمور..

نهى التي أهدتني القدرة على رؤية الملائكة..

نشوى التي أهدتني بداية الطريق..

محمد الذي جاء ليهديني بعد ذلك كل شيء..

إهداء

إلى د. أحمد خالد توفيق

الراعي الرسمي للخيال..

في حوش منزلنا يعيش حصان سحري، خلف هذا الباب الصغير المغلق الذي قال لي جدي يوما عنه إنه لا يؤدي لشيء، أسمع صهيله الخافت كل يوم وأنا أعبر البوابة الحديدية الزرقاء الصغيرة، يقع الباب الخشبي – الذي لا يؤدي إلى شيء سوى إلى حصاني السحري – في الحائط المجاور لبوابة المنزل، ويقول جدي إن غلطة بناء قد أجبرتهم على وضع هذا الباب في غير موضعه؛ فالحقيقة أن الباب يخفي مجرد فتحة لا تتعدى الـ10 سنتيمترات في الحائط، لا فائدة لها ولا تؤدي لشيء إلا إلى حائط البيت الملاصق لمنزلنا.

أما جدتي فقد أكدت كلامي عن الحصان السحري الطائر، وأخبرتني القصة الحقيقية كاملةً، التي احتفظت بها كل هذه السنين في عقلي حتى لا يتهمني الآخرون بالجنون.

فقبل مولدي، كانت السيدة العجوز التي ترتدي السواد – يسمونها ألفة – قد ترجَّت جدي أن يسمح لها بفتح الباب الخشبي ووضع كراتين الحلوى والساقع في الفتحة الصغيرة لتبيعها للأطفال في الحارة أثناء لعبهم الدائم أمام منزلنا أسفل الشجرة التي لا أعرف نوعها؛ لأنها لا تعطي أي ثمار أو أزهار، والتي كانت تظلل تلك المساحة الجرداء قبل أن تيبس تماما بعد ذلك لأسباب غير مفهومة.

وبعد أن سمح لها جدي بذلك، كانت ألفة تجلس أمام الباب الخشبي

كل صباح وحتى غروب الشمس، ثم تختفي من حيث جاءت، لا يعرف جدي أين منزلها، ولكن جدتي أقسمت لي إنها كانت تعبر فتحة الحائط المسدود وتغلق وراءها الباب الخشبي العتيق.

قال جدي إن جدتي قد أصبحت مخرفة، وإن ألفة ليست ساحرة ترتدي السواد وإنما بائعة مسكينة، ولكنها اختفت يوم مولدي لظروف لا يعرفها أحد.

في هذا اليوم، جاءت أمي مسرعة إلى بيت جدي لشعورها بأنني على وشك الاقتراب، كانت السماء غائمة تنذر بمطر فبراير المفاجئ، وكانت جدتي تتأهب لتحضير العشاء، جلست أمي مجبَرة بأوامر جدتي، التي كانت تتعامل بلا مبالاة مع عملية الولادة بعد أن أنجبت ستة أطفال من قبل، مات منهم واحد، لتناول العشاء، ولكني لم أسمح لها، تقول جدتي بأنني «تزفلطت» فجأة على الرغم من وزني الكبير، ولكنني لم أبكِ، كانت بَشرتي زرقاء بشدة ولم أصدر أي صوت، صرخت أمي ظانة أنني قد وُلدت ميتة، وقتها فقط اضطربت جدتي ولم تستطع أن تفعل شيئا.. استعد أبي لطلب الإسعاف، إلا أن ألفة ظهرت فجأة في غير موعدها بعد الغروب، لتفك الحبل السُري من حول رقبتي بسرعة، ولأستعيد أنا بياض بشرتي شيئا فشيئا حتى صرختُ باكية.

انـشغل الجميـع بـأمي عـدا ألفـة، الـتي ظلـت تحملـني وتهدهـدني بكلمات لم يسمعها سواي.

بعد أن سلمتني ألفة لوالدتي، لم يرَها أحد بعد ذلـك، اختفـت فجـأة بحلواها وكراتينها وبملابسها السوداء وغموضها المدهش.

يقول البعض بأنها قد تركت الحارة لضيق الرزق وعـادت إلى قريتهـا القريبة من بلدتي لتعيش مع أولادها، لكن جدتي تصر على أنهـا قـد عـادت لعالمها السري خلف الباب الخشبي، وأنـها تركت حصانها السحري (وسـيلة تنقلاتـها) خلفها ليحرسه، فلا يعبر بعدها أحد الباب أبدا.

وأنا أصدق جدتي تماما.

* * *

هذا ما يحدث عندما أعبر الباب الخـشبي العتيـق والفتحـة وراءه إلى عالم ألفة

أستيقظ مبكرا قبل الآخرين، أعيش مع جدتي لظروف سفر أمي وأبي إلى السعودية طلبا للرزق مثل كل المعلمين، أتأكد أن الشمس لم تشرق بعد لأن هذا هو شرط فتح الباب، أطرقه فأسمع الصهيل الخافـت، أطرقـه مـرتين ثـم أقول كلمة السر التي علمتني إياها ألفة عنـدما كـان عمـري دقيقـتين، ينفـتح الباب شيئا فشيئا لأرى الحصان السحري، أذكر المرة الأولى التي رأيته فيها، ناداني النداء العجيب عندما أتممت ست سنوات، وقتها مشيت كالمجذوبين

إلى الباب الخشبي وتمتمت باسم «عاثر».. لم أعرف ما الذي يعنيه الاسم ولا ما الذي أفعله إلا عندما انفتح الباب الخشبي أخيرا لأرى الحصان السحري الواقف خلفه كما أكدت لي جدتي دوما، كان عكس ما تخيلته تماما، كنت أتوقعه أبيض شاهق البياض بجناحين أسطوريين، إلا أنه كان مجرد حصان خشبي مزخرف برسومات بدائية يدوية الصنع يسير على 4 عجلات حمراء ولكنه يطير بخفة لا تتناسب مع الخشب الثقيل المنحوت منه، اقتربت منه، أجفل فربت على خشمه لينحني لي ولأستطيع الصعود على ظهره؛ فأنا ما زلت قصيرة لظروف سني التي لا تتجاوز السنوات السبع الآن.

يحملني الحصان في العالم السحري لألفة، ألفة هنا لا ترتدي السواد بل البياض الشاهق، مثلها مثل كل الموجودات بالعالم، كنت أعتقد في البداية أن الأرض مغطاة بالثلج، لكني اكتشفت أنه رمل أبيض ناعم وخفيف، تخرج منه نباتات بيضاء وبحور لبن بالفواكه، أما السحاب فهو حلوى قابلة للأكل أتسلى بالتقاط بعضها ليذوب في فمي أثناء تنقلي على ظهر عاثر.

اسمه بانا..

بانا هو العالم السحري الذي كنت ألجأ إليه طوال طفولتي، قد يكون هناك أطفال آخرون قد وجدوا ضالتهم له وقد لا يوجد، قد يكونون يعرفونه باسم بانا أو بأي اسم آخر، ليس هناك قواعد في بانا.

كل مرة كانت الموجودات تتغير، كنت أحلم بالسفر إلى أمي وأبي فينقلني عاثر إلى سريرهما الدافئ، أنام وسطهما في أمان وأستيقظ قبل استيقاظهما لأعود من حيث أتيت.

كنت أحلم بالذهاب لزيارة مدينة البط، ينقلني عاثر لخزانة عم دهب؛ حيث أستمتع بمشاهدته يطارد بطوط وأذهب معهم في رحلاتهم للبحث عن الكنوز والهرب من سونيا الشريرة.

كنت أحلم بالذهاب بالسفر إلى جزيرة روبنسون كروزو، التي قرأت قصتها عندما كبرت قليلا، فيأتي عاثر ويحملني عبر البحار والمحيطات لأبني بيتا من جذوع الأشجار وأكتشف ما تركته لي السفينة على الشاطئ، أتناول حبات المانجو والموز والتفاح طوال النهار دون الحاجة لإجبار نفسي على تناول السبانخ والكوسة اللتين تحب جدتي إطعامي إياهما.

عاثر هو الحصان السحري، وهو كلمة سر الباب أيضا، وحارسه الأمين، يحملني دائما إلى مكان جديد؛ حيث ألتقي ألفة أو لا ألتقيها، ولكنها في كل مرة تترك لي مفاجأة مدهشة لأحملها معي بعد عودتي.

في المرة الأولى حملني عاثر إلى كرنفال الألعاب الأسبوعي، وهناك كانت ألفة تجلس على كرسيها العالي لتراقب الألعاب التي تستعرض نفسها بشوارع بانا، كانت عرائس الباربي تبدو مزهوة بأناقتها، أما العمدة الآلي

فكان يتقدمهم ليحميهم بصواريخه التي تخرج من رأسه وأشعة الليزر من عينيه، وعلى شاشة بطنه المسطحة كانت الكاميرات تنقل الأحداث الشائقة أولا بأول.

كنت أعرف العرائس بالاسم وأحفظ صلات القرابة بينها، تقول ألفة إنني من سميتهم، بقدرتي الخارقة على الحديث بلغة العرائس التي لا يعرفها سواي ولا حتى ألفة، أنظر فقط إلى وجه العروس لأعرف اسمها الذي تخبرني به؛ هناك لبنى، العروس الممتلئة الجالسة دوما بلونها البرتقالي الجميل، وزوجها فارس، وهو فارس خشبي صغير وقع من فوق حصانه بعد أن انكسر المسمار الذي يثبتهما معا وفشلت أنا في إصلاحه، لأقنعه بأنه هكذا حر الحركة ليستطيع التمشية مع لبنى زوجته وابنتيه هايدي وهالة المصنوعتين عكسه من الفخار بعد أن انتزعتهما من علب السبوع التي جاءت بها جدتي بعد زيارتها لجارتنا التي أنجبت.

وهناك كريم وأخته آية، وهما من عرائس «الكرنبة» اللطيفة، كريم متزوج من سالي الشقراء القصيرة التي انتزعت ابنة خالتي ذراعها فثبتتها بـ«دبوس إبرة» لتتمكن من تدويره كما اعتادت أن تفعل من قبل، ولديهما ولدان توأم من البلاستيك، مبتسمان دائما، هما: أحمد وأمجد.

أما آية فلم تتزوج بعدُ لعدم استطاعتي العثور على عريس ولد يليق

بها، لكنها تحب البقاء مع صديقتيها العازبتين أيضا مهرة وأريج.

أما إيهاب فهو المفضل لديَّ؛ لأنه أول من تعرفت عليه من بين العرائس، كان يجلس على دراجة زنبركية صغيرة أهداها لي أبي في عيد ميلاد شقيقتي التوأم حتى لا أحزن لعدم تسلمي هدايا مثلهن. ولكني فككت إيهاب من الدراجة ليصبح حر الحركة أيضا مع زوجته مريم، التي كانت ملتصقة بفيل زهري بلاستيكي صغير، لكني قصصتها بالمقص من فوقه لتستطيع البقاء مع إيهاب، حب حياتها للأبد، وابنتيهما ميرنا وميرال اللتين كانتا موصولتين بأستك «التوكة» التي أربط بها شعري، ثم وجدت أنهما تصلحان بنتين لمريم وإيهاب، خاصة أنهما قصيرتان مثلهما..

أما المفضلة لديَّ فهي باربي، التي أخبرتني بأن اسمها الحقيقي هو براكسا، وبأنها لا تحب اسم باربي الشائع هذا، وزوجها حازم الوسيم مفتول العضلات، وهما ملك وملكة العرائس والمسئولان عنها؛ لأنهما الأطول. لدى براكسا وحازم ابن وابنة، هما: أدهم وشذى.

أحييهم عريسا وعروسا بالاسم وأقبلهم جميعًا وأذهب لأجلس بجانب ألفة لأشاهدهم عن كثب، قد نقضي بعض الوقت في تفصيل فساتين جديدة للعرائس الفتيات، أو الاحتفال بضم عروس جديد إليهم لتصبح جزءا من عالم بانا المتع.

في نهاية اليوم، يعود بي عاشر إلى الباب الخشبي ويتركني لأعبره وحدي لأسرع إلى فراشي قبل استيقاظ الجدة. وفي كل مرة تعطيني ألفة شيئا وتأخذ شيئا؛ فمرة أعطتني علبة بنفسجية بها بعض من رمال بانا البيضاء بعد أن أبديت إعجابي بخفتها ونعومتها ورائحتها التي تجعلني أنام، وأخذت مني بعض النظر، ومن يومها وأنا أرتدي النظارة الزهرية التي سخرت منها جميع زميلاتي في المدرسة، ومرة أعطتني سنجابين صغيرين سرعان ما تحولا إلى سنجابين بلاستيكيين لا يتحركان، أخبرتني ألفة بأن أعطي أحدهما لشخص عزيز عليَّ لنظل معا للأبد وأخذت مني حرف الراء لأصبح لدغاء، وبعد أن أصبح عمري **16** عاما، أعطتني نعمة الخيال الدائم الذي أهرب إليه عندما تتعقد الأمور وأخذت مني قدرتي على النوم المنتظم لأصبح دائمة السهر بشكل يجعل أبي يرغب في قتلي لأنام قليلا.

طوال حياتي، يعتقد الجميع أنني مجنونة؛ لأنني في صعودي وهبوطي على سلالم منزلنا، ألصق أذني على الباب الخشبي الذي يعتقد الجميع أنه لا يؤدي لشيء لأسمع صهيل عاثر الخافت، الذي يتعمد أن يرفعه قليلا عندما أكون بجوار الباب، وكأنه يلقي عليَّ السلام.

* * *

اليوم، اكتشفت طريقة جديدة للمشي في السماء، كنت قد شممت رائحة الذرة المشوية قادمة كالعادة من شباك غرفتي لأعلم أن السيدة ذات

الحاجبين الأزرقين التي تبيع الذرة المشوية على ناصية الشارع المجاور لشارعنا قد عادت أخيرا.

خرجت لأطلب من جدتي ربع جنيه لأنني أريد كوزا من الذرة المشوية فأعطتني، جريت مسرعة إلى السيدة الجميلة التي تشبه ألفة بعض الشيء، كانت تصفّ أكواز الذرة بدقة على الأكواز الناشفة المشتعلة التي تستخدمها كفحم للتوفير، وتخبرني بأنها قد جمعتها اليوم بنفسها لتتأكد من حلاوة طعمها، أكواز العسل كما تسميها.

كنت أتأمل حاجبيها الأزرقين جيدا، كانا مرسومين بدقة على وضع التعجب الدائم، حاولت تقليدهما مرة بالقلم الفلوماستر في منزلنا فعنفتني جدتي وغسلت وجهي بالصابونة حتى اهترأت بشرتي قليلا.

قالت لي بأنها دقتهما بعد أن أكلت النار حاجبيها ذات يوم، هناك في بلدتها سيدة متخصصة في دق الحواجب والوشم، أخرجت مرآة مربعة مكسورة من طرفها الأيمن لتنظر إلى وجهها الجميل.

أعجبتني المرآة كثيرًا؛ لم تكن مزخرفة ولا ملونة ولكنها كانت صافية بشدة، أعطتها لي لأنظر فيها.. وضعتها تحت أنفي مباشرة ونظرت لأسفل فوجدت السماء التي مالت إلى المغيب قد أصبحت تحت قدمي، تحركت لليمين قليلا، لليسار، ضحكت جذلا، كانت هذه هي المرة الأولى لي

التي أمشي فيها على السماء، ناولتني البائعة كوز الذرة وقالت بابتسامة: يمكنك الاحتفاظ بالمرآة؛ لا أحتاجها.

عدت إلى البيت ونسيت أن أشكرها، تركت كوز الذرة على الكرسي بجوار الباب لأكمل رحلتي إلى السطح، كانت السماء في الشفق الأخير، وضعت المرآة تحت أنفي ونظرت لتصبح السماء أسفل قدمي مرة أخرى.. يومها مشيت كثيرًا جدًّا في السماء حتى التمعت النجوم، كنت أركلها بقدمي لتتطاير متلألئة. أحب النجوم؛ فهي تكتم الأسرار كما تقول السيدة الشقراء صاحبة الصوت الجميل في التليفزيون. وكانت النجوم تحبني لأنني أخاطبها كل يوم.

منذ سفر أمي إلى السعودية وأنا أجلس مساء كل يوم في الشرفة لأحكي لها عنها؛ رائحتها والتايير الكحلي الذي كانت ترتديه أغلب الوقت وهي آتية لاصطحابي من المدرسة هما أكثر ما أفتقده، في اليوم السابق وضعت مس عبير العطر نفسه ومرت من خلفي فاعتقدت أن أمي قد عادت، التفتُّ مسرعة فلم أجد سوى المس.

كانت أمي تأتي لاصطحابي من المدرسة كل يوم وتشتري لي مجلتَي ماجد وميكي وكيس كادبوري إكلير الكبير الذي أعشقه. الآن أنا أعود مع عمو سمير السائق الذي يقوم بتوصيل التلاميذ في شارعنا إلى المدرسة كل يوم

بالتاكسي القديم الخاص به، وكل يوم يقوم بتـشغيل أغنـيتي سـواح ودي دي في كاسيت السيارة حتى حفظتهما.

لا أعرف بأي لغة عفاريتي كُتبت دي دي، لكن بعـد **154** مـرة مـن سماعها باستمرار تم حفظها عن ظهر قلب، أمس وجدت نفسي أدندنها وأنـا أكتب الواجب فاعتقدت جدتي أنني قد جننت، لم أعرف مـن يغنيهـا حتـى كبرت قليلا ورأيت تصويرها في التليفزيون، أعجبني الـشاب الأسمـر أشـعث الشعر الذي يغنيها كثيرًا، وعلى الرغم من أنـني لا أفهمـه فـإن بحـة صـوته وابتسامته عبرتا سريعًا إلى قلبي.. علمت بعـده أن اسمـه الـشاب خالـد وأنـه عربي وليس هنديا كما كنت أعتقد.. من الجزائر الـتي لم أكـن أعـرف عنهـا شيئا قبل اليوم.. يومها علمت أن الفن هو من يعرّف الأشخاص علـى بعـضهم الـبعض حـول العـالم ولـيس أي وسـيلة اتـصالات أخـرى حتـى مـع التقـدم التكنولوجي الذي حدث في شبابي بعد ذلك.

على العموم، لم أكن أكره عمو سمير ولا أغنـيتي سـواح ولا دي دي.. لكني كنت أفتقد أمي..

تطلب مني مس عبير كتابة الدرس مـرتين قبـل انتهـاء الحـصة لأن خطي «وحش»، أكتب بسرعة قبل أن تلم الكراريس، لم تعطني وقتـا كافيـا، كيف إذًا تريدين مني تحـسين خطـي أيتهـا المـس؟ أضـغط علـى قلـم الـسنون

فتتطاير رؤوسه على الأرض، أعرق وتحمر أذني يا أمي، وأنزل أسفل «الديسك» لألملم الرؤوس وأقوم بإدخالها إلى القلم الغبي، كانت هذه آخر مرة أقوم فيها باستعمال قلم السنون، أحب الأقلام الرصاص المقلمة المبرية جيدا. أرجوكِ لا تحضري لي من السعودية أقلام سنون ملونة وغبية.

كانت شيماء صديقتي، ذات الشعر الأسود الناعم، تبكي فيطيّب خاطرها أستاذ إبراهيم، مدرس الدين، وتأتي مس محفوظة لتخلع نقابها أمامنا فأرى الحسنة الضخمة على أنفها. أحب مس محفوظة وأحب حسنتها الكبيرة، لكنني لا أستطيع رفع عيني عنها فلا أفهم ما تقول في الدرس.

هل تصلك رسائلي مع النجمات يا أمي؟ أسألها في الهاتف فتقول: نعم تصلني. لماذا تبكي أمي؟ هل تحزنك رسائلي؟ ربما يجدر بي التوقف قليلا عن مخاطبة النجمات والاكتفاء بالمشي جوارها في السماء كل ليلة.

* * *

هذا ما سيحدث عندما أكبر وأغادر المدرسة

عندما أصير كبيرة مثل أمي ومس عبير ومس محفوظة، لن أذهب أبدا إلى المدرسة، لن أستيقظ مبكرا في البرد وأرتعش وأنا أغيّر ملابسي.. وأنا أرتب الشنطة.. وأنا أشرب الشاي باللبن أمام برنامج صباح الخير يا مصر، لن أشاهد برنامج صباح الخير يا مصر مرة أخرى.

لن آكل ساندويتشات المربى أبدا.. لن أشتري ميكانو مرة أخرى.. لن

أكتب بأقلام سنون، لن أكتب أصلا.

لن أسمع صريخ الأطفال في اللعب أثناء الفسحة، لن تحملني دادة مديحة، لن أسعل، لن أتناول الدواء أبدا.

سأستيقظ متأخرًا جدًّا.. سأضع المكياج مثل أمي أمام المرآة، البودرة ثم الكحل وأحمر الخدود وأحمر الشفاه الفاتح.. سأقص شعري قصيرًا جدًّا وأتخلص من الضفيرة.. سألقي نظارتي الزهرية في سلة المهملات وسألوّن أظافري.

سأقرأ القصص طوال النهار وألعب بالأتاري وحدي سوبر ماريو طوال الليل، وسأشاهد «اخترنا لك» وحلقات المتزلقين كاملة دون أن يقول لي أبي أن أنام من أجل المدرسة.

سأتزوج إيمان البحر درويش وسيغني لي «نفسي»؛ لأنني أحبها، سنغني معا «أنا طير في السما» وسنجري وسط الحديقة الخضراء مثلما رأيته في الفيلم.

والأهم أنني لن أرى حسنة مس محفوظة مرة أخرى..

* * *

هناك ملك أخضر يسكن رئتيَّ، يعيش هذا الملك وقبيلته هناك في فصوص الرئتين ويتحركون ويتكاثرون مسببين لي السعال والإرهاق الشديد، كنت أسعل وأسعل لأخرجهم خارج صدري فيقذفونني بأسلحتهم لتخرج من

فمي وتؤذيني.

لم تدرِ أمي ماذا تفعل، كانت قد عادت أخيرا من الخارج وتركت والدي هناك يسعى لرزقنا، طافت بي مع جدتي على كل الأطباء ولكني كنت أعلم أن الملك الأخضر لن يخرج بهذه السهولة.

أدوية.. أدوية..

أدوية..

لا شيء سوى الكثير من سلاحهم الأخضر الذي يطلقونه من فمي، وكل مرة كنت أبصقه فيها كنت أتمنى لو كان هذا هو الملك قد قرر الخروج أخيرا ومن بعده سوف تتساقط كل القبيلة.

أخذتني أمي إلى طبيب ضيق العينين في المنصورة، أجرى لي عملية بسيطة اسمها منظار، كما قال لأمي، لم أدرِ بما حدث لأنني كنت تحت تأثير البنج، ولكني عندما استيقظت كانت أمي تبكي بعد أن أخبرها الطبيب أنه لا يرى شيئا ولا يستطيع معرفة سبب المشكلة.

كنت أعلم أن الملك الأخضر لن يراه أحد وأنا فقط أعرف بوجوده وشكله ولونه، ولن يصدقني أحد إن أخبرتهم؛ لذلك لن أخبرهم على كل الأحوال..

كنت لا أزال أزور ألفة كل صباح وأركب على حصانها السحري،

وهناك في بانا فقط لم أكن أسعل، كنت أجري كما أشاء دون أن يمنعني أحـد.. أتناول الحلوى والشوكولاتـة دون أن تتسبب في زيادة سعالي، لا أكون مضطرة أبدا لشرب الينسون وورق الجوافة ووضع أوراق الجرائـد فـوق صـدري أسـفل البيجاما لأظل طوال الليل أسمع صوت خرفشتها كلما تقلبت..

ولكن في عالمي كنت أمرض أكثر، أمـرض حتـى لا أقـوى علـى صـعود السلالم أو النزول.

دفعت أمي مبلغا من المال لدادة مديحة في المدرسة مقابـل أن تحملـني في الأيام القليلة التي أذهب فيها إلى المدرسة كل يوم للفصل وتنزلني في نـهاية اليوم.

لا أحضر طابور الصباح ولا أنزل للفسحة، أجلس في الفـصل لأتنـاول ساندويتشات الجبنـة البيضاء وأقرأ «ميكي».

كنت أكره المدرسة وأكـره صـوت لهـاث دادة مديحـة وهـي تحملـني وتصعد بي درجات السلم على الرغم من أني أحبها هي شخصيا، وأكره حملي كل يوم أمام التلاميذ الذين ينظرون لي بتعجب.

أكره التفافهم حولي عندما أسعل وأنا جالسة في آخـر الفـصل، وأكـره مس غادة التي تنذرني بالذهاب لمجاميع التقوية في الصباح قبل المدرسـة لأن مستواي «وحش» بسبب الغياب، أخبرها في صبر كل مرة بأنني لـن أسـتطيع

الذهاب لأنني أذهب للطبيب كل يوم اثنين في ميعاد المجموعة ولا آتي للمدرسة أصلا.

لم أحفظ جدول الضرب ولا أعرف عواصم العالم، لا أعرف من المدرسة سوى راندا صديقتي التي يهديني أبوها في بداية كل عام زمزمية بلاستيكية من مصنعه مكتوبا عليها اسم راندا؛ فهو اسم المصنع أيضا لأشعر طوال العام بأن هذه الزمزمية ليست ملكي.

أحضرت لي والدتي أستاذا خصوصيا في المنزل، أستاذ مجدي كان عجوزا ظريفا ويرتدي «جاكيت» بنيا قديما ويشبه محمد نوح الذي يغني بصوت مرتفع جدا. أخبرتني أمي أنه مسيحي «مدقرم» وسيقوم بتعليمي كل شيء ولكني لم أعرف ما الذي تعنيه كلمة «مدقرم».. كل ما فهمته أنه رجل ظريف..

علمني أستاذ مجدي جدول الضرب سريعا، وجعلني أحفظ دروس القراءة والعلوم والدراسات أيضا، ولم تعد مس غادة تطلب مني الذهاب إلى مجموعات التقوية لأنني لن أذهب على كل حال.

تأقلمت مع ملكي الأخضر ومع السعال؛ فبعد كل هؤلاء الأطباء وكل هذه العمليات وكل هذا البنج لم أعد أقوى على التحمل أكثر من ذلك.. استسلمت للأمر وبكيت لأمي لتتركني ولا تذهب بي للأطباء مرة أخرى،

تعبت من الحقن والمضادات الحيوية ومن دادة مديحـة، سـوف أصـعد الـسلم ببطء ولن أنزل في الفسحة، أنا بخير مـع ملكـي الأخـضر؛ سـوف نتفـق مـع بعضنا البعض.

بعد ذلك بوقت طويل، وعندما رآني دكتور إيهاب عبد المنعم وهبـة، كما تقول لافتته الكبيرة في شارع المديرية القريب من بيتنا، الذي ذهبنا إليـه صدفة بعد أن لففنا على كل الأطباء في محافظات مصر القريبة والبعيـدة، قـال لأمي ببساطة: اعرضيها على طبيب أنف وأذن.. المشكلة الأساسـية ليـست في صدرها.. لقد كنتم تبحثون في المكان الخطأ كل هذه الأعوام.

أعطاني الطبيب الملتحي الوسيم، الذي يشبه عـلاء عبـد العظـيم بطـل سلسلة «سافاري» كما سأعرف بعد أعوام، بخاختين، لأنفي وفمـي، يبـدو أن هاتين البخـاختين كانتـا تطلقـان بعـض الأسـلحة في اتجـاه الملـك الأخـضر، وبالفعل كان لا يزال داخل رئتي ولكن السلاح الأخضر لم يعـد يـؤذيني مثـل السابق، عقدت البخاختان مع الملك هدنة طويلة ونزعتا عنه سـلاحه لتتركـاه معدوم القوة يحاول التأقلم وحده مع من تبقى من قبيلته..

وبعدها.. ذات صباح، بعد أن صار عمري اثني عشر عامـا، أحسـست أن صدري ينطبق ورئتيّ تصرخان، جريت إلى الحمام متوقعـة ضـربة قاصـمة من السلاح الأخضر من جديد، لكن ما خرج كان الملك شخصيا، خـرج بكامـل

طوله وهيئته، وقف أمامي فانحنيت لاهثة، قال وداعا واختفى، من بعدها لم أعد أسعل إلا عندما أشعر بالإحراج فقط.

* * *

هذا ما حدث أثناء زيارة من زياراتي للطبيب ذي العينين الضيقتين في المنصورة

غرفة الانتظار في عيادة الطبيب الذي يشبه الصينيين واسعة للغاية.. أجلس منكمشة في كرسي بجوار الشباك ابتعادا عن رائحة المطهرات التي تخنقني.. أمي بجواري تجلس في صمت الاعتياد على الانتظار.. أنا مثلها لم يعد يتعبني الانتظار.. لم أعد أندهش من أعداد المرضى في العالم.. لم أعد أخجل من صوت سعالي الجاف الذي يجعل جميع من في الغرفة أو الفصل أو المنزل يلتفتون إليَّ.. لم أعد أحزن من سكوني الدائم ومنعي من الجري في الشارع أو ركوب الدراجة.. تعطيني أمي شوكولاتة لأبتسم قليلا.. لم أعد أفرح بالشوكولاتة ولا اللعب الكثيرة التي يجلبها لي أبي من الخارج في الإجازات.. الشوكولاتة لا تمنع السعال، بل تزيده.. أنظر إلى الرجل العجوز الجالس أمامي نصف نائم.. بالجلباب الرمادي والطاقية على رأسه وجواره تجلس ابنتاه الشابتان.. أكسر الشوكولاتة لتخرج اللعبة الصغيرة بداخلها فتتدحرج إلى أسفل مقعده.. يتناولها ويمد يده إليَّ بها.. يربت على رأسي الصغير ويعود للاستناد إلى عصاه نصف نائم.

التمرجي بشاربه الأصفر الذي يضحكني.. يضحك ويشعل التليفزيون على أغنية أطفال.. كان صوته عاليا دائما ويزعجني تماما.. كنت أكره أغنيات الأطفال وأكرهه لأنه هو من وضع لـي قنـاع البـنج في المـرة الـسابقة.. بعـدها استيقظت لأجد نفسي راقدة على السرير في الغرفـة الـصغيرة الملحقـة بغرفـة العمليات في العيادة وبجواري ولـد نـائم اكتـشف الطبيـب بالمنظـار أن سـبب سعاله هو قشرة لب ظلت عالقة بقصبته الهوائية.. الحكاية التي سمعت أمي ترويها بعد ذلك للجميع مئات المرات متحسرة أن مرضي ليس ببساطة إزالـة قشرة لب من على القصبة الهوائية بعملية منظـار.. أكلـت الكـثير مـن اللـب الأسمر بقشره بعد ذلك حتى أُسهل للطبيب مهمته في المرة المقبلة بلا فائدة..

يُدخِل التمرجي الرجل العجوز وابنتيه قبلنا.. أظل محدقة في مقبض الباب حتى يـدور لأعـرف أن المـريض الـذي يـسبقني سـيخرج الآن ونـدخل نحن.. أريد الانتهاء سريعًا من كل ما أعرف أنـه سيحدث.. الطبيـب الـذي يشبه الصينيين يضع سماعته الباردة علـى صـدري وظهـري ويطلـب مـني أن أتنفس بصوت عالٍ.. ثم يجلس ليصف أدوية جديـدة ويخـبر أمـي أنـه حـان الوقت للتدخل الجراحي ليعرفوا ماذا يحدث حقا داخل رئـتيَّ المـسكينتين.. أنظر إلى السقف متجاهلـة نظـرات أمـي الحزينـة وهـزات رأسـها مـع كـلام الطبيب.. ثم أعود إلى المنزل لأخذ الأدوية والحقن التي لم تعد تؤلمني الآن..

كان مقبض الباب قد بدأ في الدوران بالفعل بسرعة مبالغ فيها.. صوت الصراخ غطى على الأغنية الدائرة.. الطبيب ومساعده يحملان العجوز مغمض العينيين إلى حجرة الجراحة، وراءه ابنتاه تصرخان.. تحتضنني أمي مخبئة وجهي في صدرها، لكني أستطيع الرؤية، أرى وجه العجوز المغمض.. يفتح عينيه فجأة وينظر لي بجمود ثم يختفي الجميع داخل الغرفة.. كانت أمي تبكي.. دقيقة ثم خرج الطبيب وهو يتلو الشهادة عائدا إلى غرفة الكشف.. يقول التمرجي للبنتين: «بلاش تنقلوه بالإسعاف عشان ما تدخلوش في سين وجيم، اسندوه بينكم بقى كده لحد ما توصلوا البلد، كلها ربع ساعة».. البنتان تسندان أباهما الفارغ من الحياة بينهما وتبكيان.. تغادران العيادة بخطى ثقيلة.. تمشيان مع جثة أبيهما عائدتين إلى المنزل، أبوهما ميت فعلا، ميت مستند إليهما معا.. أرتجف.. كانت هذه هي المرة الأولى التي أقف فيها أمام الموت وجها لوجه..

* * *

يخبر التمرجي أمي أن علينا الدور في الدخول.. سرير الكشف لا يزال غائصا بوزن الرجل العجوز ومشعا بحرارته.. أنظر إلى الجميع من حولي: الطبيب.. التمرجي.. أمي.. سقف الحجرة البارد.. الأغنية لا تزال تدور.. لا تزال تدور.. وأنا أبكي.. أبكي فقط بلا صوت..

* * *

عندما ماتت جدتي كنت نائمة، استيقظت على صراخ أمي وأختيّ وتعثر أبي وهو يرتدي ملابسه قبل وصول الإسعاف، نقلوها وهي في غيبوبة، كما قالت أمي، وذهبوا جميعًا ليتركوني وحيدة في المنزل، بعد ذهابهم انفجرت مروحة السقف واشتعلت النيران فجاء الجيران ليطفئوها بسرعة، كنت خائفة وأرتجف، جلست «طنط نبيلة» و«طنط أم جورج» التي لا أعرف اسمها الحقيقي حتى الآن لتهدئتي وتنظيف الشقة، حتى عاد أبي وأختاي فقط وظلت أمي في المستشفى بجوار جدتي.

كنت أحب تيتة، كانت تستيقظ مبكرا وتعد الإفطار لها ولجدي في الشرفة وكنت أستيقظ معها أحيانا لأنني أنام بجوارها كل ليلة، أتناول الإفطار معهما وأتسلل قليلا لـ«بانا» وأعود قبل أن يلاحظ غيابي أحد.

اليوم لم أذهب لـ«بانا» وجلست لأنتظر عودة تيتة، ولكنها لم تأت بعد ذلك، اليوم الوحيد الذي لم أتناول معها الإفطار ذهبت فيه بلا رجعة، هل كنت أنا السبب؟

عادت أمي صباح اليوم التالي وقالت إن تيتة تتحسن.. كانت تتحرك بسرعة لتغيير ملابسها وإعداد بعض الطعام قبل العودة إلى المستشفى، لكن صراخ خالتي وهي تصعد السلالم أوقفها متجمدة.

خالتي التي استقبلت خبر موتها بعد ذهاب أمي بدقائق هي من

جاءت تصرخ على سلالم دارنا، جلست أمي على الكرسي أمامي صامتة، أمسكت الهاتف وأبلغت معارفنا بالأمر قبل أن تذهب في ثبات لشراء الكفن.

أخذني أبي وذهب بي إلى أولاد عمومتي لأبقى لديهم، لا يريدني أن أحضر الغسل والدفن، لم أكن أريد أن أحضرهما أيضا ولا أفهم ما الذي يعنيه بذلك حتى، فقط أتذكر بعضا من هذه الطقوس عندما ماتت جدتي الأخرى «نور»، قبل ذلك بسنة، كنت أصغر فلم أحزن بشكل يماثل حزني الآن، لكنني اليوم أتذكرهما معا وأبكي.

كانت جدتي تملك شعرا طويلا أسود فاحم السواد ليس به أي شعيرات بيضاء، كنت أحب تمشيطه لها عندما تجلس تكحل عينيها بقلم الكحل في مرآة الدولاب كل صباح، كنت أحب رؤيتها وهي تكحل عينيها.. جميلة تشبه الممثلة شادية.

أجلس على سلالم دارنا والنساء يتشحن بالسواد ويجلسن في صالة البيت بجوار أمي، تجلس أمي صامتة ولا تبكي، أمي الكبرى بين أخواتها والأكثر قربا لجدتي لم تبكِ، فقط أصيبت بالضغط من يومها ولم تعد أبدا بعد ذلك كما كانت.

ألعب على سلالم البيت مع باقي الأطفال وأشاهد الصوان من الشرفة، يجلس جدي وأبي وخالي خارجه قليلا لتلقي العزاء، أراهم من فوق وأتمنى

الذهاب للجلوس معهم ولكن خالتي تمنعني.

أتذكر تيتة مرة أخرى بعد أن نسيت الموضوع قليلا، أريد الـذهاب إلى بانا ولكن الشمس مشرقة ولن أستطيع المرور.

بعد أسـبوع وبعـد أن انتهـى الزحـام والعـزاء.. وبعـد عـودة أبـي إلى السعودية وانعـزال جـدي في غرفتـه، لم يتبـقَّ سـواي أنـا وأختـاي وأمـي في المنزل، تسللت عائدة إلى بانا، كانـت هنـاك عروسـة جديـدة قـد انـضمت إلى العرائس، عروسة لها شعر أسـود طويـل علـى غـير عـادة العـرائس وقتهـا، وعينان كحيلتان، سـألتني ألفـة: مـا اسمهـا؟ نظـرت إلى العروسـة الجديـدة لتخبرني باسمها، قالت: كريمة.. نظـرت إليهـا في حـب وأدركـت أنـني لم أفتقد جدتي كثيرًا، فهي معي هنا والآن.

* * *

هذا ما حدث عندما كنت أستيقظ مبكرا وأتنـاول الإفطـار مـع جـدتي قبل أن تصعد إلى السماء

استيقظت كالعادة مع جدتي لأتناول معها الإفطار، كانـت تجلـس في الشرفة لتطعم الفراخ في العشة الصغيرة التي صنعتها بنفسها ثم تضع صـينية الإفطار في المائدة وتوقظ جدي، ذات مرة أصاب الديك الكبير الخمول ولم يعد يأكل، قالت لها أمي: اذبحيه سيموت. ولكـن جـدتي أرقدتـه علـى رجليهـا وأحضرت سكينا ساخنا من المطبخ، فتحت له بطنه وهو مستسلم لها وبحثت

في حوصلته حتى وجدتها، كتلة من الشعر الملتف بلعها بالتأكيد بالخطأ، أخرجتها جدتي وغسلت له بطنه بالماء والملح ثم أعادت خياطتها بالخيط الأسود السميك والإبرة كما تقوم بخياطة فستاني عندما يتمزق.

لم يصدقني أحد عندما قلت لهم إن جدتي عملت عملية للديك، ضحكت أمي عندما رأت الديك واقفا على قدميه يتناول الطعام ويناقر باقي الدجاج في العشة، قالت لتيتة: «انتي دقرمة».

تناولت الإفطار مع تيتة وجدي يومها وصنعت لها بعض الشاي، فنجان شاي لها وربع فنجان لغرض آخر مختلف، كانت جدتي تحتفظ بصينية أسفل النيش تحتوي على شيء ما لا أدري كنهه، يبدو أشبه بالفطير المشلتت التي تخبزه جدتي في الفرن أحيانا، تسقيه كل صباح ربع فنجان شاي ليظل «يبقلل» بعضها ويتنفس كالكائن الحيّ.. كان ينمو ويزداد سمكا ويتكاثر أيضا.. كل شهر كان يظهر فيه بروز سرعان ما يكبر ليتحول إلى فطيرة أخرى مماثلة فوقه، تنتزعها جدتي برفق وتهديها لواحدة من حبيباتها جاراتنا في الحارة..

هل هو كائن فضائي أم حيوان صامت أم نبات غريب؟

لا أعرف، حتى إنني سألت ألفة، قالت لي بأنها هي من أعطته لجدتي، هو بركة في البيت.. وطلبت مني أن أتركه وشأنه.

أين اختفى هذا الشيء بعد وفاة جدتي؟ لا أعرف، ولكن ما أعرفه أن بركة البيت قد ذهبت فعلا بعد جدتي وبعده.

* * *

في الصف الخامس الابتدائي، أصدرت مجموعتي القصصية الأولى..

أذكر أنها كانت تحتوي على تسع قصص.. كتبتها بخط يدي ورسمت رسوماتها أيضا، من ضمنها أذكر أسماء مثل: سونيا والثعبان، القصة الحقيقية لسندريلا، سنو وايت لا تستطيع الغناء، السمكة التي تحبني، والرائعة الأخيرة التي حملت المجموعة اسمها: أين اختفت الطعمية؟

كانت هذه القصة تحكي عن الساحرة الطيبة التي سميتها ألفة بالطبع التي تبيع الطعمية على ناصية الشارع، تزعجها كثيرًا العائلة التي تسكن في الطابق الأرضي من المنزل رقم **7**.. لا يتناولون الطعام معا أبدا.. الأب والأم والابن والابنة لا يتحدثون مع بعضهم البعض، كل منهم في عالم آخر بعيد تماما.

تسأل الأم عن أولادها، تقول: لا أعرف. الابن عن أخته، يقول: لا أعرف. الأخت عن أبيها، تقول: لا أعرف. الأب عن زوجته، يقول: لا أعرف.. تصر على تلقينهم درسا..

تبيع لهم ألفة يوما ما قرطاسا من الطعمية كالعادة.. يضعه الابن على المائدة ويتناول قرصين وحده ويبتعد.. تأتي الأم لتتناول قرصا وتبتعد، يليها

الأب فالابنة.. ما لا يعلمونه جميعًا أن الطعمية سحرية.. بمجرد تناولها يختفون تماما عن الأنظار.. لا يرون سوى بعضهم البعض.. لا أحد آخر يراهم ولا يسمع صوتهم.. يكتشف الجميع المصيبة الكبرى فيتجمعون لمعرفة ما حدث.. ينظر الأب إلى القرطاس ليكتشف أن الطعمية خفية أيضا.. فالقط لا يستطيع رؤيتها ويعبر من خلالها كأنها هواء وهو يتمشى على المائدة.. لا يراها سواهم إذًا فيعلمون أنها سبب المشكلة..

يطاردون الآن معا ألفة.. لكن ألفة قد عادت إلى عالمها وتركتهم يواجهون مشكلتهم معا..

بعد رحلة طويلة شائقة يستطيعون العودة إلى شكلهم المادي.. يكتشفون أن مفعول الطعمية السحرية من الأصل مؤقت.. لكنها أعطتهم الوقت ليكونوا معا لأطول فترة في حياتهم..

يكتشفون غلطتهم في الابتعاد عن بعضهم البعض.. ويعودوا ليصبحوا عائلة واحدة يتناولون الفطور معا ويشاهدون التليفزيون معا..

* * *

لم تصدق راندا صديقتي أنني من كتبت هذه القصص كلها.. وأخبرَتها أختها الكبرى التي قرأت المجموعة أيضا أنني بالتأكيد قد نقلتها من المجلات التي أقرؤها.. ولكن هذا لم يمنع الفصل بأكمله من الاحتفاظ بنسخ خطتها بيدي لهم جميعًا على ورق كراسات الأسطر التسعة الذي دبسته من

المنتصف بعناية بدباسة أمي ليصبح أشبه بالمجلات التي أقرؤها.. كتبت على الغلاف بخطي المعوج قليلا الذي بذلت فيه جهدا كبيرا ليظهر ضخما ومنمقا: «أين اختفت الطعمية» وعلامة استفهام أنيقة.. وأسفله بخط أصغر – فأنا متواضعة – كتبت اسمي الثنائي كما أحبه..

أما نسختي، فقد أخذها أصدقاء أبي الذين أتوا لزيارتنا من السعودية.. وأعطاني مقابلها عمو – الذي أحبه كثيرًا على الرغم من أنني لم أرَه بعد ذلك أبدا – كاميرا شمسية وفيلما.. التقطت به كله صورا للشارع وللباب الخشبي ولعرائسي.. ولم أحمضه أبدا حتى الآن..

* * *

هذا ما ظهر في كادرات الفيلم الذي لم يحمض أبدا

كادر **1**: ألفة تقف وسط العرائس بـ«بانا» متأففة؛ فهي لا تحب التصوير لكنها قبلت من أجلي..

كادر **2**: أنا أقف في بلكونة منزلنا ومن ورائي السماء قريبة جدًّا، حتى إن أبي الذي يلتقط الصورة يظن أن هناك خللا ما في عدسة الكاميرا..

كادر **3**: صورة للباب الخشبي مواربا قليلا ومن ورائه تبدو عينا عاثر الجامدتان في وجهه الخشبي المسطح.

كادر **4**: صورة التقطتها من أعلى وأنا واقفة في الشرفة أثناء ركوب عمو محمد وعمو عبد الله – صديقَي أبي – السيارة التي ستذهب بهما إلى

المطار ومنه إلى السعودية.

كادر 5: صورة للقصص التي أحضروها لي منذ يـومين عنـدما عرفـوا أنني أهوى القراءة وأخذوا مقابلها هي والكاميرا مجموعتي القصصية الأولى.. القصص هي: أسطورة النداهة – رقصة الموت – حكايات من فيلادلفيا – بلية العجيب – عددان من «ميكي» – روبنسون كروزو.

كـادر 6: صـورة نـادرة لمجمـوعتي القصـصية الأولى: أيـن اختفـت الطعمية؟

كادر 7: صورة لأمي وهي تضحك تبدو صغيرة جدًّا وجميلة جدًّا..

كادر 8: أنا وأختاي، بابا الذي يلتقط الـصورة، نـضحك وأنـا أبتـسم جازة على أسناني كالعادة.

باقي الكادرات: صور مكررة للشارع – للـسوق – للبـاب الخـشبي – لألفة – لي – لأختيَّ – للسماء – للقمر... إلخ.

* * *

على باب المدرسة الإعدادية، يقف بائع الاستيكرات بعجلته المستندة إليها طاولـة خـشبية عريـضة يـضع عليهـا آلاف الاسـتيكرات الملونـة، كـل الأشكال لديه، لم أرَ أبدا استيكرات جميلة مثل استيكراته حتى بعد كل هذه السنين، سنو وايـت وسـندريلا وتايتانيـك وبطـوط، بـاربي وصـور مـضحكة للأطفال ونجمات ملونة رقيقـة، كـل مـا أحبـه موجـود علـى هـذه الطاولـة،

أشتري منه ورقتي استيكرز جديدتين بمصروفي كله؛ فالورقة الواحدة بربع جنيه، وأتجاهل أنني لن أستطيع اليوم شراء شيبسي أو بسكويت الشمعدان في الفسحة.

أتسلل إلى الفصل دون حضور طابور الصباح لأجلس وحدي قليلا، أخرج كشكول الاستيكرات – أثمن ممتلكاتي – وأقوم بتفريغ الاستيكر نفسه من ورقته لألصقه في الكشكول باستخدام السلوتيب، لا أنزع ظهر الاستيكر نفسه حتى لا يتلف، أضع في اعتباري أنني ربما أستخدم واحدا أو اثنين في كشاكيل المدرسة لتجميلها فأترك ظهره الذي يحفظ المادة اللاصقة كما هو وألصقه باستخدام السلوتيب أفضل، الحقيقة أنني لم أستخدم أي استيكر في كشاكيل المدرسة، كانت الاستيكرات مبهرة وملونة لدرجة أنني كنت أشفق عليها من حبسها في كشاكيل المدرسة الكئيبة التي لا تحوي سوى جدول الضرب ودروس القراءة والإعراب.

كل يوم أراجع الاستيكرات واحدا واحدا، ألمسها، أشمها، أبتسم لها وأدللها، أحبها كما أحب ألفة وأمي وجدتي وعرائسي، أعيد الكشكول إلى حقيبتي قبل ازدحام الفصل ومطالبة التلميذات لي بالفرجة على الاستيكرات.

عند عودتي للبيت، جلست على الأرض لعمل الواجب كعادتي، كانت أمي في المطبخ مع أختي، وكانت أختي الثانية نائمة في غرفتها، هناك

جزء ضبابي في ذاكرتي يومها؛ فلا أذكر سوى صوت الانفجار وأمي تجري بالملابس السوداء التي ترتديها منذ وفاة جدتي إلى الحمام والنيران تمسك في العباءة والطرحة، أختي تجري وراءها وهي تصرخ، تمسك بالدُش وتغطيها بالمياه.

أجري حافية على سلالم البيت، أطرق بهلع على كل الأبواب التي أراها، حتى باب ألفة، تنفتح الأبواب على وجوه جيراننا المذعورين الذين سمعوا الانفجار، يجري عمو عصام إلى منزلنا ووجهه شاحب من شدة الصدمة، أمي ملقاة على الكرسي بوجه محترق منتفخ أحمر.. لا أتعرف على ملامح أمي.. أصرخ أكثر فيجري للمطبخ هو وزوجته ليجلبا طبقا به بعض الثلج وأقمشة مقطعة، يجلس بنفسه ليضعها على وجه أمي المسكينة.

البيت قد تحول إلى مسرح، جيراننا وجيران جيراننا، وخالتي التي أبلغها أحدهم بالأمر فجاءت تجري مسرعة، بالطبع تذكرت يوم وفاة جدتي واعتقدت أن أمي قد لحقتها كما كان يتوقع الجميع، يأتي الطبيب لينظر أولا في عين أمي ويحمد الله أنهما لا تزالان سليمتين، يكتب روشتة طويلة بمراهم وشاش وحقنة للضغط الذي ارتفع كثيرًا جدًّا.

يذهب جدي المسكين للصيدلية ليحضر الأدوية وتقوم النسوة بربط وجه أمي كله بالشاش، يقول الطبيب: إن الحروق من الدرجتين الأولى

والثانية، ستُشفى مع الوقت ولن تترك أثرا كبيرا.

ظلت أمي في الشاش شهرين، لا أرى سوى عينيها، كيف عـبرتِ يـا أمي من هذه المحنة؟ لا أذكر.. كيف تحملت أختاي الكبيرتان صغيرتا السن تغيير الجرح لها كل يوم؟ لا أذكر.. كيف كانـت تنـام أمـي وتتـنفس وتأكـل وتبكي من خلال كل هذا الشاش؟ لا أذكر.. كيف تحملت ألا أقبـل أمـي بـين عينيها كل يوم لمدة شهرين؟ لا أذكر..

أخذت مني ألفة يومها كشكول استيكراتي، وأعطتني نعمة النسيان، نسيت الفزع والبكاء ورائحـة اللحـم المحـترق، ونـسيت وجـه أمـي المنـتفخ ونسيت النيران التي أحرقتها ونسيت مشهد أختي وهي تغطيها بالماء المندفع من الدش، نسيت ذلك لأستطيع النوم في البيـت ذاتـه، والـذهاب إلى المدرسـة ذاتها، وعمل الواجب ذاته. ونسيت كشكول اسـتيكراتي أيـضا الـذي أخذتـه ألفة وأخذت معه جزءا من قلبي.

* * *

أحـب أن أروي الأفـلام لعـائلتي وأخـتيَّ، أن أقـرأ روايـات رجـل المستحيل وأحكيها لأختيَّ اللتين تكسلان أن تقرآهـا بنفـسيهما، تـسألانني: ماذا حدث لأدهم صبري هذه المرة؟ أحكي لهما كيف تعرض أدهم لخطـر مـن نوع جديد، حقنه سيرجي كوربوف بالمخدرات وتركه يعاني الإدمان وحده، أدهم مدمن؟ نعم، لكنه ظل يقاوم.

أحكـي باسـتمتاع عـن ضـرباته المتتاليـة لأعدائـه، انتـصاره وحبـه لـ«منى»، أحكي بالتفصيل، أذكر كل نقطة، كل نكتة، وكل تعبير جاء ذكـره في القصة.

أحكي لهما عن تايتانيك، رأيته كاملا وأعدت أحداثـه مـئتي مـرة في عقلي، أحب جاك وأحب تضحيته، ظللـت أسـبوعين أدخـر ثمـن «أكلاسـير» عليه صورته لأبتاعه وأضع فيـه كـتبي أثنـاء ذهـابي إلى الـدرس، كنـت قـد أصبحت آنسة صغيرة في الصف الثالث الإعدادي، فككت ضـفيرتي ولكـني لا أزال أرتدي النظارة.

أذهب لدرس اللغة الإنجليزية الـتي أحبهـا، مـستر جمـال يجعلنـا ندخل في منافسات لحل «الجرامر» والمحادثة، أحب المنافسات وأحـب لقـب «ليدر» الذي يطلقه مستر جمـال علـى الطالـب الـذي يحقـق الـرقم الأعلـى في الإجابة عن الأسئلة، كراستي تمتلئ بلقب «ليدر» الذي يجعلني أتيه فخرا.

تتحدث صـديقاتي البنـات بـالهمس قبـل دخـول مـستر جمـال عـن تايتانيك ولقطاته الممنوعة مـن العـرض، أخـبرهن أنـني رأيـت الفـيلم كـاملا ولكنه غير مترجـم علـى شـرائط الفيـديو الـتي جـاءت إلينـا مـن أمريكـا، لا يـصدقن، يطلـبن مـني الـشرائط، أخـبرهن بـأنني لا أسـتطيع إخراجهـا مـن المنزل، شاهدتها أثناء غيابي يوما من المدرسة وذهاب أمي وأبي إلى العمل.

الحقيقة أنني لم أجد تلك المشاهد مرعبة أو مثيرة للغاية كما جعلونا نتصور، كان يعنيني جاك الوسيم المتحمس، كيف يموت في النهاية وتعيش روز؟ لا أحبها..

أشعر بالغيرة الشديدة على جاك عندما أرى الفتيات في المدرسة والدرس يضعن صوره على حقائبهن وكراساتهن، ماذا تعرفن يا حمقاوات عن جاك؟ أنا أعرفه جيدًا وأنقذته آلاف المرات في خيالي من الموت لنهرب بعيدا ونعيش أنا وهو سعيدين إلى ما لا نهاية، بعيدا عن روز وعن تايتانيك وعن الجميع، لا أحد يعرف جاك مثلي.. فهو يعيش الآن في بانا وأقوم بزيارته كل يوم.. حمقاوات جدًّا هؤلاء البنات المراهقات..

* * *

من العادات الحسنة التي ورثتها عن أبي أن رأسي ينحني تلقائيا تجاه أي رصيف مفروش عليه الكتب والمجلات، ولو كانت حتى كتبا دراسية، يجب أن يلتفت إليها رأسي تلقائيا لأقرأ العناوين كلها.

ومن حسن حظي أن مدرستي الثانوية تقع بجوار أكبر تجمع لأكشاك الكتب والمجلات المستعملة ببلدتي.. في الصباح، أشتري ربطة ورد أحمر بلدي لم أشم جمال رائحته بعد ذلك أبدا من البائعة العجوز. تعطيني الربطة بربع جنيه وتبتسم فأبتسم لها.. أعرف أن ألفة تراقبني طوال الوقت في أكثر من شخصية.. لن أندهش كثيرًا لو كانت هي ألفة أيضا.. وعلى الرغم من أن

زياراتي لـ«بانا» كانت الآن متباعدة بسبب الدراسة، فإنها كانت تنتظرني دائما.. أحيانا أحمل إليها باقات الورد التي أحفظها حية لحين ذهابي فتتناولها مني وتعطيني المقابل دائما.

فمرة جعلتني أطول، ومرة جعلتني أكثر جمالا، ومرة جعلتني أكثر أنوثة حتى قالت لي أمي يومها إنني كبرت وخرطني خراط البنات.

أما أثناء عودتي من المدرسة، فيأتي وقت الكتب والمجلات، أحفظ مصروفي كاملا لأشتري عددا من مجلة النجوم، على غلافه باك ستريت بويز، أو كاظم الساهر، أو عمرو دياب.. كنت أحب كاظم الساهر بشكل خاص فامتلأت رفوف مكتبتي بصوره والمجلات التي يتحدث فيها.

كنت حريصة أيضا على شراء أعداد ما وراء الطبيعة التي فاتتني.. وملف المستقبل ورجل المستحيل، كانت هذه هي الأيام الباسمة التي كانت تصدر فيها كل هذه الكتب كل شهر في إجازة الصيف ومرتين بإجازة نصف العام، كنت أشتري الأعداد الثلاثة بخمسة جنيهات ونصف الجنيه من مكتبة العز بميدان الساعة، ثم أتوقف على ناصية الشارع لأشتري زجاجة بيريل باردة وأشربها.

إلى جوار المكتبة كان ولا يزال يوجد محل الحلويات الأشهر في طنطا، عبد الفتاح مرزوق، الذي تكرهه أختي لأننا نتشاجر كلما ذهبنا إليه

مع أمي وأبي.. أما أنا فكنت أذهب إليه وحدي في طريق عـودتي مـن المدرسـة لأشرب الكابتشينو السحري الذي كنت حديثة التعرف إليه وقتهـا. وهنـاك نسيت يوما شنطة بلاسـتيكية بهـا بعـض القـصص الجديـدة الـتي كنـت قـد اشتريتها.. وعند عودتي وجـدتها قـد اختفـت وكـأن الجميـع أصـبح يهـوى الكتب الآن! تأكدت يومها من صدق كلام أختي عن لعنة هذا المكان الكئيـب، التي تجعلنا نحزن دائما ولكنني ظللت أذهب..

أحـب التمـشية وحـدي وتأمـل الفتـارين أسـفل البـواكي في شـارع المديرية.. أحب دمى العرض (المانيكانات) وأتمنى لـو وقفـت بجوارهـا مـرة لأشاهد المارة عن كثب.. كم حكاية تملكن أيهـا المانيكانـات؟ شـاهدت بعـدها كليب كاظم الساهر الذي كان يقوم فيه بدور مانيكان بفاترينة عرض فتأكـدت أنه يسرق أفكاري عندما يزورني كل ليلة في خيالي لنتحدث ويغني لـي علـى البيانو الأسود الضخم..

أقرأ لافتات العيادات ومكاتب المحاماة علـى البنايـات مـن حـولي.. أمشي دائما وأنا أنظر إلى أعلى إلا عندما أمر بجوار رصيف مفروش بالكتب أو الجرائد فيسقط رأسي تلقائيا إلى أسفل.. ولكني لا أنظر إلى الأمام أبـدا بـشكل سبب لي الكثير من الحوادث البسيطة..

أصل إلى البيت لأذهب إلى الدروس ومن الدروس إلى البيت.. كم أكـره

الثانوية العامة..

أدخلتني أمي «علمي» مجبرة فأصبحت أسرح أكثر من السابق حتى بعيدا عن بانا.. أسرح في جاك وكاظم الساهر وأدهم صبري.. دروس كثيرة مضت لا أتذكر منها حرفا ولكني أذكر بالضبط حواراتي التي لا تنتهي مع شخصيات خيالي وأبطالي الغامضين في دروس الكيمياء والفرنساوي والعربي.. ساعدني على ذلك ملل المدرسين وازدحام قاعة الدرس كأنه فصل في مدرسة حكومية وليس درسا خصوصيا.. يأخذني التفكير إلى شكل المدارس التي أشاهدها في الأفلام الأجنبية.. يذهبون بالملابس الملونة وبشعرهم المفرود.. يتناقشون في الفصل وفي قاعات الطعام فبالتأكيد لا يحتاجون للسرحان بعيدا عن الملل الذي يحيط بي الآن..

* * *

هذا ما حدث أثناء وقوعي في الحب لمدة دقيقتين بإجازة عام 2002

الساعة الثالثة صباحا.. أواخر نوفمبر.. الخريف كما أحبه.. خرجت للشرفة القريبة جدًّا من أرض الشارع.. والأكثر قربا للسماء.. مع أول لسعة برد يهرب الجميع إلى بيوتهم.. تاركين الشارع بأكمله لي.. أحب تأمل الشارع الفارغ في الليل وسط السكون لأستطيع التحدث إلى النجمات بحُرية.. ولأن حظي كان يومها رائعا.. اكتمل القمر مبكرا بيوم عن ميعاده من أجلي فقط.. ينظر إليَّ القمر مباشرة حتى إن رأسي الآن يمكن استبدال وجه القمر

به بكل سهولة.. أعجبتني الفكرة فدعوت الله أن يكون هناك مخلـوق فـضائي يصورني من وراء القمر لأظهر حاملة وجهه على رقـبتي.. وضـعت سماعـات الـmp3 في أذني وبدأت أحرك رأسي مع الموسيقى كعادتي.. رأسي.. كتفي.. يدي.. مشط قدمي..

نظرت إلى الشارع حتى أتأكد أن لا أحـد يـراقبني وأنـا أرقـص هكـذا بمنتصف الليـل.. صـدمت عـينيَّ رؤيـة ولـد «منكـوش الـشعر» يرتـدي «تـي شيرت» أصفر بنصف كم في هذا البرد.. يجلس على الرصيف المقابـل لمنزلنـا بالضبط.. ويمارس أغرب ما يمكن أن يمارسه شـاب في سـنه في هـذا الوقـت.. يرسم على الحائط بالطبشور الأبيض..

فكرت في احتمالات نزول ولد للشارع لمجرد أن يشخبط على الحـائط الساعة الثالثة صباحا فلـم أعـرف.. متـشرد؟ ربمـا.. شـعره يـوحي بـذلك.. يدرس في ضوء العمود لأنه فقـير؟ ضـحكت علـى تفكـيري الـساذج؛ الجميـع يملكون الكهرباء.. طـرده والـده مـن المنـزل، أو هـو المخلـوق الفـضائي الـذي يراقبني؟ تمنيت أن يرفع رأسه فقط لأرى لون بشرته؛ لـو كـان أخـضر فهـو بالتأكيد من الفضاء الخارجي..

تذكرت أن هناك ولدا قد توفي منذ فترة في الشارع المقابل.. ربما تكون روحه هائمة في الشوارع المحيطة؟ فتحت عينيّ عن آخرهما خوفا ثم أصررت

أكثر على رؤيته.. دبدبت في الأرض.. خرفشت كل أوراق البصل المتناثرة في الشرفة.. همست: «بست.. بست».. لا جدوى..

في النهاية، نزعت سماعات الـmp3 ورفعت الصوت على الأخير..

عندها رفع عينيه فعلا.. ابتسمت له.. عدت لأتحرك على إيقاع الموسيقى.. وبالمثل بدأ هو يحرك رأسه على الإيقاع.. كتفيه.. يديه.. مشط قدمه.. عندما انتهت الأغنية ظللنا واقفين نبتسم لبعضنا البعض.. دقيقتان تخيلت فيهما مليون فيلم بنهايات سعيدة لنا معا.. ولكن السيارة المسرعة التي كان ينتظرها كل هذا الوقت وصلت أخيرا لتقله.. نظر لي ورفع يديه لأعلى محييا.. باسطا راحة يده فقط فبادلته بالمثل.. التقت يدانا على البعد لثانيتين وذهب..

في الصباح.. في طريقي لشراء بعض الأوراق لأكتب عليها قصة حبي الأولى.. مررت بجوار الرصيف المقابل لمنزلنا فوجدت بالطبشور رسمة لفتاة تحمل وجه القمر الذي يرتدي سماعات الأذن وسط سماء، النجوم بها عبارة عن نوتات من الموسيقى..

* * *

تغيرت بانا كثيرًا..

في الحقيقة، لا أعرف إن كانت هي التي تغيرت أم أنا.. كنت قد أصبحت أطول وأنحف.. ذات شعر قصير للغاية كما أحب، كنت أغادر

منزلنا في الخامسة صباحا كل يوم ولا أعود سوى في العاشرة مساءً.. مرهقـة.. مكتئبة أنام نوما بلا أحلام وأصحو لأعاود هذا كله..

أشفقت عليَّ ألفة فأعطتني القوة لتحمـل هـذا كلـه وأخـذت في المقابـل غمازتيَّ..

لم تلاحظ أمي اختفاء غمازتيَّ، ربما فسرَت الأمر بأنني كـبرت علـى هذه الغمازات الطفولية، أما أنا فقد حزنت قليلا ثم تناسيت الأمر.. فالآن أنا أحتاج للقدرة على التحمل لأستطيع عبور هـذه الأوقـات الـصعبة للدراسـة في كلية لا أحبها بمدينة أخرى بعيدا عن كل معارفي وأصدقائي..

الحقيقة أنني كنت بلا أصدقاء حقيقيين طوال عمري، لم يكـن الأمـر يحزنني كثيرًا، بل كنت أراه أكثر راحة.. أنا لا أحتاج سـوى لألفـة وبانـا.. أتحدث مع ألفة في كل شيء، خاصة أنني الآن لم أعـد صـغيرة جـدًّا بالنـسبة لها.. ألفة في بانـا كانـت شـابة جميلـة ترتـدي الأبـيض دائمـا.. وكنـت قـد أصبحت في مثل طولها أو أطول قليلا..

قضيت يـومي الأول في الكليـة جالـسة وحـدي ببرجولـة حـديقتها.. أتأمل وجـوه الأشـخاص الغريبـة عـني تمامـا.. كنـت بعيـدة كـل البعـد عـن القاهرة، ناسها ورائحة سمائها المختلفة عن سمـائي الـتي أعرفهـا وأحفظهـا ككف يدي..

في اليـوم الأول مـن كلـيتي، عرجـت علـى بانـا قبـل المغـادرة للحـاق بالقطار..

كانت ألفة تراقب كل شيء من على كرسيها المرتفع عن شوارع المدينة التي أصبحت بيـضاء مـع لمـسة زمرديـة مجهولـة تنتـشر شـيئا فـشيئا علـى الموجودات..

لم أقابل الوجوه التي أعرفها، رأيت وجوها جديدة.. رأيـت الولـد ذا الـ«تي شيرت» الأصفر لا يزال جالسا يخط بالطبشور رسومات غريبـة.. كـان هناك «راسبوتين» الذي يسافر معي بالقطار كل يوم..

الحقيقة أنني كنت أخاف من «راسبوتين» جدًّا..

عرَّفني على نفسه بأنه وكيل نيابـة يعمـل في بنهـا ويـسافر كـل يـوم نصف المسافة التي أسافرها أنا..

كانت عيناه سوداوين بشدة، متسعتين، وأكاد أجزم أنـه لا يـرمش.. رددت بكلمات غير مفهومة وانكمشت في مقعدي أكثر..

ثم إن رائحة عطره كانت ثقيلة للغاية.. ثقيلة وغامضة حتى شـعرت بالـدوار، يومهـا رأيتـه في بانـا بملابـس «راسـبوتين» الحقيقيـة وحاجبيـه الكثيفين، لا يحاول مداراة حقيقته هنا.. لا أحد يفعل..

في الأيام التالية، صار لي الكثير من الأصدقاء الجديدين في بانا والذين

أقابلهم صدفة في العالم الواقعي لمرة أو لمرتين لأذهب وأجـدهم ينتظـرونني في بانا بشخصياتهم الحقيقية..

الحقيقة أن حياتي الفعلية كانت هنـاك ولـيس هنـا بـشكل يجعلـني أتساءل كل يوم: لماذا أعود؟

كنت أعود من أجل أمي ومن أجل أختيَّ ومن أجل التعـرف إلى مزيـد من الأشخاص لضمهم إلى هناك.. بانا تكبر وتنمو بالتزامن الطردي مع حياتي الواقعية للأسف..

ولكني كنت أحب تأمل الناس في القطار، الحقيقة أن معتـادي الـسفر مثلي كـل يـوم سـرعان مـا يتعرفـون علـى بعـضهم الـبعض بالوجـه وأحيانـا بالأسماء، ويصبحون بعد ذلك – شاءوا أم أبوا – عائلة واحـدة كـبيرة تـساعد بعضها في العثور على التذاكر والجلوس في المقاعد بالتناوب في الأيام المزدحمة الخالية من الحجز..

كنت قد تعودت على وجوه عـائلتي الجديـدة في القطـار وأسمـائهم.. هناك من هم في مثل سني وهناك من هم أكـبر بكـثير.. مفـتش القطـار الـذي يسألني كل يوم عن معنى كلمةٍ ما بالإنجليزية، أو جمع شاذ في العربية يظـن أنني لن أعرفه..

– صباح الخير.. ما مفرد أشلاء؟

– شلو..

– برافو

– صباح الخير.. ما جمع إمبراطور؟

– أباطرة.

– برافو.

كنت أحب القطار وأحب نوافذه وأحب الأشجار على الطريق و«أبو قردان» يتسلى في الحقول الخضراء بالتقاط شيء ما بمنقاره..

وكنت أحب الغرباء في القطار وأحب الوقوف بين العربات قليلا وأحب الحديث مع جاري أو جارتي في القطار وإخبارهم بكل شيء لأنني لن أراهم ثانية على كل الأحوال.. وبالمثل كنت أسمع أسرارا كثيرة.. أسرارا مخيفة وأسرارا سخيفة وأسرارا مؤثرة.. جعلتني أكتشف أبعادا أخرى لهذا العالم حتى لم يعد يصيبني الاندهاش..

وكنت أحب محطة مصر وأحب رائحتها وأحب سقفها الخشبي المرتفع المماثل لمحطة إنجلترا كما رأيتها في الأفلام قبل أن يجددوها إلى شيء أشبه بالقاعدة الفضائية القبيحة.

كنت أحب بوفيه المحطة وقهوته ومائدتي المفضلة في الركن بجوار الشباك الذي يطل على رصيف رقم **4**، وأحب كل من جلست معهم على هذه

المائدة في يوم من الأيام.. أشخاص كثيرون جدًّا لدرجة تجعلني أفكر في كتابة كتاب بأكمله عنهم..

كنت أحب القطار وعالمه ولكنني كنت أحب بانا أكثر..

في الكلية، وسط المحاضرات التي لا أذكرها ولا أهتم بذلك، كنت أسرح بخيالي إلى بانا..

يستقبلني عاثر كالعادة ويأخذني في جولة بشوارعها المحببة التي تتغير بالفعل ولكنني غير قلقة..

بانا تعرف ما أريد رؤيته وأنا كنت أحب أن أقابل من أحبهم هناك..

لا أخجل من الاعتراف بحبي الشديد لشخصياتي الخيالية التي لم أقابلها أبدا؛ لذلك كانت ألفة تكافئني بإحضارهم لي في بانا، يعجبني مشهد ما، في مكان ما، بفيلم أو قصة، فأجده بالضبط هناك، أجلس لأخط كتابات كثيرة على ظهر تذاكر القطار قبل أن يقلصوها إلى حجم علبة الكبريت بسبب ارتفاع أسعار الورق.

أقرؤها لأصدقائي هناك في بانا، الذين أستلهم وجوههم من وجوه شخصياتي المفضلة..

كنت أحب نزار قباني جدًّا فأجد هذا الشاب الشامي الأشقر ذا العينين الزرقاوين يجلس بجواري يخط شيئا في ورقهِ أزرق اللون بالحبر

ويستمع إلى كلماتي جيدا.

كان حديثنا جديا جدا، وكان يفيدني كثيرًا بآرائه، يرشح لي قصائد لأقرأها ويقرأ ما أخطه بيدي من قصص على تذاكر القطار.

يعجبني رشيد طه، غريب الأطوار، لأجده في بانا بشعره الأشعث وابتسامته نصف الساخرة، يأخذني في جولة بشوارع باريس والجزائر ويعلمني العزف على الجيتار..

أحب علاء عبد العظيم فأجد نفسي في «سافاري» أصبح «برنادت» بكل سهولة فأنا أبتسم مثلها تماما بـ«التشنيكة»..

في بانا، أصبح راقصة باليه رشيقة وأجيد قيادة السيارات والعزف على البيانو والكمان وتحدث الفرنسية بطلاقة..

في بانا، أملك كاميرا حديثة ومنزلا على الشاطئ ومكتبة ضخمة بها كل الكتب التي تمنيت شراءها يوما وملابس كثيرة جدا..

في بانا، يحبني الجميع ويتسابقون لكسب رضاي، أغني وأرقص كل يوم مع عرائسي..

في بانا، أنا سعيدة..

في بانا، أنا واثقة..

في بانا، أستطيع فعل كل شيء والرد على كل من أهانوني بكلماتهم

يوما وطردهم خارج بانا لأنهم لا يستحقون العيش فيها..

يا الله.. كم أعشق بانا!!

* * *

في إجازة عامي الدراسي الأول بالجامعة جاءني خبر وفاة محمد كريم..

الحقيقة هي أنني رأيت الموت كثيرًا أكثر ما يحتمله عمري القليل.. ومن يومها وأنا أخافه كثيرًا.. أخافه وأتجاهله فيأتيني في الأحلام يأخذ مني كل غالٍ ويتركني ضائعة تماما..

أحلم بأبي يأتي ساندا أمي التي تبدو نائمة على كتفه ويقول لنا: «أمكو ماتت»!

كنت أنظر إلى وجهها العزيز في الحلم وأختنق لا أستطيع التنفس، أصحو مفزوعة وأهرع إلى غرفتها لأراقب تنفسها في الظلام وحدي..

قرأت، أن من يقرأ الفاتحة والمعوذتين والإخلاص كل يوم قبل نومه ثلاث مرات، يحميه الله من الموت أثناء نومه..

كنت أقرؤها لكل العائلة: ثلاث مرات لأبي، ثلاث مرات لأمي، ثلاث مرات لجدي، ثلاث مرات لأختيَّ، ثلاث مرات لألفة، ثلاث مرات لي..

وأحيانا ما كنت أشفق على الجيران أو المعارف أو حتى شخص ما رأيته لمرة في القطار فأقرؤها له أيضا..

ولكني نسيت أن أقرأها لكريم..

كنت في القطار أيضا! عائدة من زيارة عائلية بالزقازيق لأولاد عمومتي هناك عندما جاءني الخبر.. ضحكت ساخرة في وجه محدثتي وقلت لها: كريم مات إيه؟ انتي مجنونة؟

أغلقت الخط في وجهها وأسرعت إلى ما بين العربات لأستطيع التقاط أنفاسي..

كريم، العزيز الوحيد الذي أستطيع محادثته دون ارتباك.. أستطيع التجول معه حول الكلية ويشجعني على النزول في الصباح الباكر يوم إجازتي لنرسم معا في شوارع مصر القديمة والقلعة..

كريم حادثني منذ أسبوع ليخبرني بأنه يريد رؤيتي لأمر مهم ولكنني نويت معاودة الاتصال.. ماذا كنت تريد يا كريم؟ أرجوك أن تخبرني..

أخرجت الهاتف وطلبت رقمه..

جرس..

لا أحد يرد..

جرس..

لا أحد يرد..

جرس..

صوت لا أعرفه يقول: سلام عليكم..

قلت: محمد.. أين هو؟ محمد كريم..

صوت نحنحة: الحقيقة يا ابنتي أن محمد.. (يتنحنح).. صوته مختنق

محمد توفاه الله هذا الصباح.

لا أرد..

يقول: البقاء لله وحده.

لا أرد..

شدي حيلك..

لا أرد..

هل أنتِ زميلته بالجامعة؟

لا أرد..

أغلقت الهاتف وجلست على أرض القطار حتى أوقفني شخص لا

أعرفه.. يبدو أنه سمع المكالمتين فأنزلني علـى الرصـيف بعـد توقـف القطـار شفقة بمنظري..

لا أعرف كيف وصلت إلى البيت ولا كيف نمت..

لا أعرف كيف أفقت بعد ذلك..

ما أعرفه أنني لا بد أن أذهب لألفة الآن..

* * *

هذا ما جاء في خطاب غير مكتوب من محمد كريم

عزيزتي..

لسه مش ناسي شكل الشباك الإزاز اللي لما كانت الشمس تيجي عليـه يبقى لونه متموج ما بين الأزرق والبنفسجي.. لمّا قوّمتك ساعتها وقلتلك تعالي بسرعة اقفي قدامي هنا وارفعي راسك لفوق.. بصينا إحنا الاتنين على الشباك بتاع البيت القديم اللي في حارة خوخة.. بعدها بصيتيلي وقلـتي: انـت ازاي بتشوف الجمال المستخبي وسط كل القبح والفقر اللي في المكان ده؟

يومها انتي ما بطلتيش كلام عن حقوق الفقرا في مصر.. وإن مصر مـن تحت مالهاش أي علاقـة بمـصر مـن فـوق.. وأنـا كنـت بـسمعك وأنـا برسـم الشباك.. ساعتها مرت من قدامنا واحدة بتزغرد.. وفرّجتنا على شبكة بنتها اللي لسه جايبينها.. ملامح الفرحة اللي على وش الست خلتني أقولك: فعلا

مصر من تحت أجمل بكتير من مصر من فوق..

لما جينا نروّح قلتيلي إنك حابة تروّحي مشي.. رغم شنط الآرت باج الضخمة اللي إحنا شايلينها.. مشينا من القلعة لحد مترو العتبة.. كنتي بتتكلمي عن عبد الناصر وحلمه في العدالة الاجتماعية.. وقلتلك انتي بتحبي تنحازي دايما للجانب الخاسر.. لدرجة إنك بتشجعي الزمالك!

كنت بكلمك عن الروح.. وليه لما بنموت الروح (الجزء النقي مننا) هي اللي بتصعد والجسم بيفنى.. قلتيلي: يا ترى كل الناس اللي منتشرين حوالينا دول اللي من غير روح لما يموتوا إيه اللي هيحصل لهم؟

في المترو، قررت أطلع معاكي لمحطة مصر أوصلك.. طلبتي مني أفضل في المترو وأكمل لمحطتي، بس أنا صممت.. أول ما دخلنا المحطة قلتيلي تعالى أعزمك على كابتشينو من ماكينة الكابتشينو اللي على رصيف **4**.. أنا بحب الكابتشينو فعلا انتي عارفة ده.. بس أنا يومها كنت متأخر قلتلك خليها المرة اللي جاية، أنا يادوب ألحق أروح عشان أنزل تاني..

أنا عارف إن المرة اللي جاية ما جتش.. وعارف إنك من يومها ما بقيتيش تجيبي كابتشينو من الماكينة اللي على رصيف **4**.. سمعتك وانتي بتقولي الماكينة دي اتحرمت عليا خلاص..

بس عارفة؟ أنا شايفها من منظور تاني.. إحنا الدعوة ما بيننا لسه

قايمة.. والمرة اللي جاية مش شرط تكون قريبة..

الدعوة اللي ما بيننا دي اللي لسه ما اتحققتش هي اللي بتخليني ليا الحق إني أزورك.. إنك تشوفيني وتتكلمي معايا.. علشان كده بتصحي من النوم متخيلة إن ده حقيقي فعلا مش حلم..

أنا مبسوط إني كنت متأخر يومها وإني ما لحقتش ألبي دعوتك ليا على الكابتشينو.. الدعوة اللي أنا متأكد إنها هتتحقق في يوم من الأيام.. ومش شرط في نفس العالم ده.. يا عزيزتي في عوالم تانية الكابتشينو فيها أحلى بكتير..

عرفتي إزاي بقى بعرف أشوف الجمال وسط كل القبح؟

محمد كريم

2005\9\6

* * *

قالت لي ألفة: سوف أمنحك القدرة على البدء من جديد، ولكني سآخذ ربع قلبك..

وافقت؛ فمع ألفة لا مجال للرفض..

ومع ذلك، ماذا سأفعل بقلبي على كل الأحوال؟ قالت: في قلبك تكمن بانا.. كلما تناقص منه جزء صغرت.. وأنتِ كنتِ قد وضعتِ ربع قلبك الأول

مع كشكولك العزيز، تذكرين؟

همست: يكفيني نصف قلب إذًا ونصف بانا مع نعمة البدء من جديد.. لا أريدها كاملة وأنا لا أستطيع التمتع بها..

منحتني ألفة بداية جديدة ومنحتني بانا الحلم..

أتجول في شوارعها الآن التي صارت باللون الزمردي الفاتح.. أتعرف على وجوه رأيتها في الروايات أو الأفلام ووجوه في القطار والشارع والجامعة.. ووجوه في المترو والأوتوبيس والمكتبات..

أقرأ الكتب الآن فأعيشها كالفيلم في بانا.. كانت هذه هي تسليتي الوحيدة، والأمر الذي يجعلني قادرة على المواصلة..

وهناك في العالم الواقعي الذي يضعني فيه شيئا فشيئا، كان الصراع يحتدم بين جذبه لي من بانا، وهروبي منه إليها..

كان عالمي لا يكف عن خذلاني فأذهب إلى بانا لتشفيني وتأخذ شيئا مني مقابله.

ظللت 4 سنوات أسافر كل يوم، أدرس، أقابل أشخاصا كثيرين، أرسل كتاباتي من على ظهر التذاكر إلى الجرائد المختلفة التي أتابعها، فتنشر لي بعضها لأفرح، أذهب بها إلى بانا أريها للجميع هناك فيفرحون.

كل هذه التفاصيل بين عالمين قد أربكتني.. أنستني الكثير ولكني

أذكر الرائحة.. رائحة الألوان والورق في الكلية.. رائحة الجرائد والتـذاكر في القطار، رائحـة القهـوة في بوفيـه المحطـة.. رائحـة الـشاي الأسـود المخـتلط بالقرفة في بيتنا.. رائحة غزل البنات في بانا..

كنت أكبر وتتسع رقعة النسيان التي وضعتها ألفة في عقلي منذ عـشر سنوات لتأكل أحداثا كثيرة أعصر عقلي الآن لتذكرها.

كان هذا هو إيقاع حياتي حتـى الـشهر الأخـير في العـام الأخـير مـن دراستي الجامعية.

* * *

هذا ما وجدته مكتوبا بالعامية على ظهر تذكرة قطار بتاريخ 7 يوليو 2004

لو سمحتي يا آنسة، هو ده كرسي 36؟

كانت مغمضة عينيها لما سمعت صوته، بـس عرفـت إنـه بيوجهلـها هي الكلام.. كان ممكن تتجاهله وتكمل نوم زي ما بتعمل غالبا.. بس صـوته المرتبك خلاها تعرف إنه مش متعود على ركـوب القطـر.. فتحـت عينيهـا.. لقته ماسك التذكرة في إيده وبيدور على رقم الكرسي المكتوب بخط مش باين.. قالتله: أيوه ده كرسي 36.. قعد جنبها وهو بيقول: متشكر.. قالتله: علـى فكرة انت كرسيك هو اللي جنب الشباك وأنا كرسي الممر، لـو حابـب ممكـن تيجي مكاني..

– لأ مش مشكلة، خليكي زي ما انتي..

– أنا ما عنديش مشكلة برضه أصلا – ووطت صوتها – الكرسي بتاع الممر أحسن.. أصل القطر ده فيه صراصير..

– فعلا؟

– أيوه، بيمشوا على الشبابيك.. هما على فكرة بيرشوا القطر بالبودرة بتاعة الصراصير.. بس الصراصير جوه المحركات وبين العجل.. في كل حتة..

– لو بتقوليلي كده عشان ما اقعدش على الكرسي أنا فعلا مش هقعد..

– لأ على فكرة ما بقولكش كده عشان كده.. أنا غلطانة أصلا إني ما قعدتش على كرسي الممر بدل الصراصير اللي جنبي دي..

– عايزة تبدلي؟

– لأ خلاص بقى..

سكتوا.. كان القطر بدأ يتحرك.. بصت للشباك عشان ما تبصلوش أكتر من كده.. كان هو طلع كشكول بيكتب فيه.. بصتله وحاولت تقرا هو بيكتب إيه بس ما عرفتش..

– انت تعرف إن الصراصير موجودة من 250 مليون سنة.. وإن غالبا الإنسان هينقرض وهي هتفضل موجودة؟ دول لقوا صراصير جوه

المفاعلات النووية..

– هو انتي ليه بتحبي تتكلمي عن الصراصير؟

– هو انت بتكتب إيه؟

– هو انتي مجنونة؟

– أحيانا.. على فكرة أنا ما بتكلمش مع حد في القطر أبدا..

– طب ما تتكلميش..

– تصدق أنا غلطانة فعلا؟

غمضت عينيها وهي باصة ناحيته على سبيل العند ونامت.. هي كانت متعودة على النوم في القطر لدرجة إنها لما كانت بتشوف أي كرسي أزرق بتنام فورا..

هو كان مركز جدًّا في اللي بيعمله، بعد عشر دقايق قطع الورقة من الكشكول وحطها في الشبكة اللي قدام كرسيها وغمض عينيه..

ما تعرفش إيه اللي خلاها تفتح عينيها وتبص قدامها.. مدت إيديها للورقة ومسكتها وهي مبتسمة.. لما بصتله لقته فتح عينيه.

– انت كنت بترسمني؟

– أيوه..

– حلوة قوي.. لازم أعزمك على قهوة عشان الرسمة دي..

لما عربية البوفيه عدت طلبت من غير ما تسأله اتنين قهوة زيادة..

قالها: افرضي أنا بشربها سادة مثلا؟

– لأ بتشربها زيادة..

– عرفتي منين؟

– أنا ليا خبرة في الموضوع ده.. بعرف كل واحد بيشرب القهوة إيه بالظبط..

– بس أنا فعلا بشربها سادة.

– يبقى هتشربها من دلوقتي زيادة..

– انتي نازلة فين؟

– طنطا.. وانت؟

– إسكندرية..

– طب لو نمت بقى ابقى صحيني عشان أنزل..

– ولو ما صحتكيش؟

– هكمل معاك لإسكندرية..

– حصلتلك قبل كده؟

– كتيييير..

- وكنتي بتعملي إيه؟

- ولا حاجة، بنزل أشرب قهوة في المحطة وأرجع آخد القطر لطنطا..

- هو انتي مجنونة؟

- هو انت متجوز؟

بص للدبلة في إيده.. وما ردش.

- يعني أول مرة أكلم حد في القطر يطلع متجوز؟

- وإيه المشكلة في ده؟ انتي ما بتكلميش متجوزين؟

- لأ..

- ليه؟

- عشان ما احبش حد متجوز.. وتبقى مأساة..

- انتي أي حد بتكلميه بتحبيه؟

- أي حد بكلمه في القطر بحبه.. عشان كده ما بكلمش حد..

- يعني انتي بتحبيني؟

- مش انت اللي رسمتني؟

- على فكرة، القهوة دي وحشة قوي..

- أيوه، قهوة القطر وحشة..

- لأ دي عشان زيادة..

- خليك واثق في كلامي.. قهوة القطر وحشة فعلا.. لو شربت معايا قهوة في مكان تاني هتعرف إن القهوة الزيادة طعمها حلو فعلا..

- انتي بتحبي تقعدي على الكرسي اللي جنب الشباك، عشان كده بتحكي للناس حكاية الصراصير دي، صح؟

- أيوه..

ابتسم..

- على العموم أنا خلاص نازلة وممكن تقعد على كرسيك بقى..

- بالسرعة دي؟

- أيوه، طنطا المحطة اللي جاية..

- مش هتاخدي الرسمة؟

- اوعى تكون كاتبلي رقم تليفونك عليها بقى وحركات المراهقين دي؟

- لأ، مش كاتب حاجة..

بصت للورقة بخيبة أمل وقالت: فعلا؟

كان القطر وقـف في المحطـة.. قـام علـشان تعـدي.. لبـست شـنطتها الكروس وهي ماسكة الورقة في إيدها..

- شكرا على الرسمة يا...

- شكرا على القهوة يا...

مشيت ناحية الباب ونزلت..

كانت وصلت للباب بتاع نفس العربية من ورا.. فكرت ترجع تركـب تاني وتكمل لإسكندرية.. كانت بتدخل من الباب فعـلا لما خبطـت في واحـد نازل..

- انتَ؟

- كان بيمدلها إيده بالمسطرة الـ«تـي» بتاعتهـا وهـو بيقـول: انـتي نسيتي دي..

- يا مجنون القطر هيمشي..

- فعلا؟

كان القطر بدأ يمشي..

- ممكن تلحقه ولا انت بتخاف تنط في القطر وهو ماشي؟

- لأ.. أنا بخاف من الصراصير..

ضحكت..

- على فكـرة أنـا مـش متجـوز.. دي دبلـة والـدي الله يرحمـه.. أنـا لبستها من ساعة ما مات..

- الله يرحمه..

- يعني انتي متأكدة إن القهوة الزيادة طعمها حلو؟

- أيوه، ومتأكدة إنك هتشربها زيادة بعد كده..

- طب ممكن أردلك العزومة؟

- آه ممكن.

- فيه مكان نشربها فيه ولا هنضطر نشربها عندكو في البيت؟

- نشربها في كافيه الأول وبعدين هتشربها في البيت إن شاء الله..

- أنا بتدبس بكامل قواي العقلية..

- يعني هي هتفرق؟ ما انتَ كده كده لابس الدبلة..

- تصدقي عندك حق..

- أنا دايما عندي حق..

- ما أنا عارف..

بصوا لبعض وابتسموا.. من بعدها لما بقت تنـزل في إسـكندرية عـن قصد.. كانت بتلاقيه مستنيها في المحطة عشان ياخدها ويشربوا قهوة بـره؛

لأن القهوة اللي بتعملهاله في البيت كانت بتبقى دايما من غير وش.. شبه قهوة القطر كده.. بس في الحالتين القهوة كانت بتبقى زيادة..

* * *

في هذا الشهر الأخير قابلت «معين»

كنت قد أرسلت القصة التي كتبتها على ظهر تذكرة القطار إلى جريدة شبابية نصف مشهورة فقامت بنشرها، كنت سعيدة جدًّا برؤية اسمي المطبوع على أوراق الجريدة الرمادية الرديئة، جعلت العائلة كلها تقرؤها ليشيدوا بها وباسمي المنشور في «الجرنان».

تخيلت نفسي وأنا صحفية شهيرة، سوف يستضيفونني في مؤتمر «تيدكس» الذي أسمع عنه لأحكي قصة ظهور اسمي الأول في الجرائد.. تخيلوا هذه القصة التي نقلتني إلى عالم الشهرة كتبتها على ظهر تذكرة قطار..

هذا يعلمكم أشياء كثيرة لا أستطيع سردها اليوم؛ لأن مسموحا لي بإحدى عشرة دقيقة فقط للتحدث.. سيصفق لي الجميع وسأنزل لأشاهد باقي المتحدثين يحاولون أن يكونوا رائعين مثلي.

سأحصل على جائزة نجيب محفوظ وجائزة ساويرس وجائزة البوكر، وسيستضيفونني في التليفزيون لأصمت وأترك للمذيع الفرصة في التحدث عني.

أفقت من تفكيري الجميل على صوت الهاتف، رددت لتصبح تلك هي المرة الأولى التي أسمع فيها صوت معين.

قال: أنا المحرر العام للجريدة، لك مستحقات مالية لدينا يمكنك المرور في أي وقت لتسلمها.

معين..

مووعين.. اسم غريب!

هل قال مستحقات مالية؟

العنوان هو العجوزة شارع...

مُعين.. هل هو أحمد معين أو محمد معين، أو هذا اسم للشهرة فقط؟

سأكون موجودا يومي الثلاثاء والخميس، سأنتظرك لنتناقش حول القصة..

كيف يبدو «معين»؟ من صوته يبدو أسمر ذا شعر أشعث ويشبه رشيد طه، بالتأكيد سأقع في غرامه لو كان يشبهه..

- اتفقنا؟ هه..

- آه نعم بالتأكيد، سآتي يوم الخميس المقبل..

- سلام..

كنت أتمرن على حديثي عندما أذهب.. أستاذ معين؟ معين، أليس

كذلك؟ حسبت أني سمعته خطأ في الهاتف.. هو معين؟ فقط؟ لا يوجد أحمد أو محمد؟ غريب..

همم.. لديّ مستحقات مالية يا سيدي.. من أين آخذها؟ نعم تريدونني أن أصبح رئيسة التحرير؟ لا يا سيدي لا يمكن، أنا لا أستطيع، ليس لديّ خبرة..

حسنا يبدو هذا جيدا.

يومها تأنقت كثيرًا، وهذا يعني أنني ارتديت «جاكت جينز» فوق قميصي الأسود لأخفي بقعتي ألوان جواش في ظهره وذهبت.

كان معين جالسا في غرفة مزدحمة بالمكاتب، على عكس ما تخيلته، كان أبيض البشرة أخضر العينين له لحية بنية غريبة، ليست قصيرة كما يفعل المتحذلقون ولا كثيفة كالمتدينين، نصف نصف، تخفي نصف وجهه فلا يظهر سوى عينيه وطرف أنفه.

وقفت أمامه وقلت: أستاذ معين؟

– نعم؟

– امم، حضرتك اتصلت بي.. أنا لديّ قصة.. أقصد مستحقات مالية.. صح؟

– نعم نعم.. أهلا..

وقف ليصافحني ودعاني للجلوس.. قال: لا، تعالي اجلسي على هذا الكرسي بجواري لأستطيع التحدث.. لا أسمع شيئا في هذا الزحام.

كان الصخب شديدا لم أسمع نصف كلامه تقريبا، أعتقد أنه كان يتحدث عن القصة، كل ما أذكره أنني كنت أتابع لحيته البنية اللطيفة.. يبدو كالأقزام السبعة في مثل هذه اللحية، غير أنه طويل.

– ها، ما رأيك؟

– في ماذا؟

– فيما قلته، هل تحبين الكتابة معي في الصفحة؟ أقوم بتجميع الأقلام الشابة، هذه صحافة شبابية، نريد دماءً جديدة.

قلت له: سأفكر في الأمر، ظروف السفر ستمنعني من الذهاب والمجيء لكنه قال بأن هذه ليست بمشكلة، يمكنني دوما إرسال المقالات عبر البريد الإلكتروني. نحن في عصر جديد الآن..

في هذه الليلة هاتفني معين ثانية.

قال إنه سعيد جدًّا بلقائي وأخبرته بأني كذلك.

قال: أنتِ حقيقية..

كانت أول مرة يخبرني فيها شخص ما بأني حقيقية.. حسبت هذا شيئا مفروغا منه، إلا أنه أصبح شيئًا مهمًّا جدًّا عندما قاله معين.. أنا

حقيقية.. أنا حقيقية فعلا وموجودة هنا والآن..

أعتقد أنني سأحب معين.. لأنني بالفعل قد أحببت لحيته البنية الجميلة.

* * *

نصف القلب المتبقي لي بعد أن أخذت ألفة بقيته يؤلمني هذه الأيام.. أشعر به يدق في حلقي وكأنه سيخرج من فمي بعد دقائق.

أشعر بدوار وأجلس في مقعدي قليلا لأستطيع الوقوف..

كنت أفكر في معين، أحاول تذكر أي موقف سعيد لنا معا علني أعافَى قليلا.

ما يؤلم حقا أنني كنت أعرف أن الحكايات الجميلة لا بد أن تنتهي نهايات سيئة..

أحاول تذكر إلى أين ذهبنا، متى تحدثنا، هل قبلته يوما، هل سافرنا معا.

المشكلة أن عقلي كان قد بدأ في الخلط بين واقعي وخيالي..

أذكر جلوسنا في هذا المقهى بجوار محطة القطار في مدينتي.. لا أعرف عمَّا أتحدث.. قررت قطع كل علاقة بيننا فبادر هو بمصالحتي..

خلع حظاظته القماشية السوداء من يده وألبسها إياي.. قال: هذه

لربطنا معا دائما..

بعد أن عاد من رحلته الأخيرة كـان مـصرا علـى أن هـذا لم يحـدث.. لكني كنت متأكدة أنه حدث.. من أين أتيت بحظاظته إذًا؟

كنت أجلس على سطح بيتنا أنظر إلى السماء الخالية من النجمات بعد أن جمعتها كلها في برطمانات وتركتها في بانا.. لم تعد هناك لتنقل رسائلي فقررت إرسالها عبر التكنولوجيا الباردة التي قال عنها بأنها هي علامة العصر الجديد..

أكتب رسائل إليه ثم أحذفها.. أكتب جملتين وأرسلهما بلا رد.. ما جدوى الرسائل؟ وما جدوى الكلمات؟

أخبره: السماء تبدو الآن بعيدة جدًّا من دون وجودك إلى جانبي.. أين ذهبت؟

لم يكن الحب هو ما يكسر قلبي، بل الفقد.. كيف أفقد شخصا دون أن أراه للمرة الأخيرة؟ كيف أدرك حينها الفارق بين الواقع والخيال، بين ما حدث وما لم يحدث؟

كيف أفقد شخصا دون معرفة السبب؟ في الموت نعرف الأسباب.. في السفر نعرف الأسباب.. في الكره نعرف الأسباب.. أما الأسباب غير المعلنة فهي الأقسى..

أعرف أن البشر يتغيرون.. وأعرف أنني عرفت أنه هو بالذات بالتأكيد سيذهب في النهاية لأنني كلما أحببت شخصا فقدته..

كان الوحيد الذي لا أستطيع رؤيته في بانا.. رغم أنه الوحيد الذي أفكر فيه الآن..

عندما قرر الذهاب، قررت أنا الأخرى ترك بانا نهائيا.. ما فائدتها إن لم تكن تستطيع تعويضي عن غيابه؟

حكيت له قصة بانا كاملة فابتسم ولم يعلق.. كان يقول عني خيالية وساذجة، وبالتأكيد تأكد هذه المرة من الأمر أكثر..

معين يعرف أشخاصا آخرين أكثر ذكاءً وجمالا.. كان يهمه أن يكون مَن أمامه حقيقيا وملموسا.. أخبرني يوما بأنني حقيقية وصدقته ولكنه تراجع بعد ذلك في كلماته.. يبدو أن هناك من هم أكثر حقيقية مني..

قال:

– كل الأشخاص يتغيرون.. نحن في مدينتين مختلفتين ولا أمل في علاقة عن بُعد.. ثم إنك بعيدة.. أشعر وكأنك لا تنتمين لهذا العالم..

– ولكنك أخبرتني من قبل بأنني حقيقية..

– أنت حقيقية فعلا.. وشفافة.. أكاد أرى روحك.. انظري إلى عروق يديك الزرقاء.. جلدك الشفاف يبرزها بوضوح وكأنك لست.. بشرية..

لم أفهم كل هـذه الكلمـات المنمقـة الـتي يجيـد معـين رصّـها بجـوار بعضها.. ولن أذكره من جديد بأنه هو من قال لي يوما أحبك أمام شهاب مـار بالصدفة في السماء يومها.. حذرته بأن هذه علامة على أن السماء شاهدة علـى كلمته فرحب بذلك..

الآن يخذلني ويخذل السماء..

المشكلة يا معين أنني لا أدرك إن كنـت أحبـك حقـا أو أحـب كـل مـا تخيلت أنك قد تفعله من أجلي.. ولكنك لم تفعل!

المشكلة يا معين أنني لا أدري إن كنت مهمـا حقـا لـذلك لا تظهـر في بانا.. أم أنك غير مهم على الإطلاق لذلك لا تظهر في بانا..

المشكلة أنني لا أدري لماذا أشعر بكل هذا الألم وكأنـك موجـود طـوال عمري على الرغم من أنك لم تبقَ أكثر من شهور قليلة..

شهور قليلـة اسـتنفدت فيهـا خيـالي وأفكـاري وأجـزاء مـن قلـبي.. تغذيت عليها كأي مصّاص أرواح محترف وتركتني هكـذا فارغـة لا أسـتطيع حتى التفكير في بانا بعد أن أنهيت بنفسك نصف قلبي المتبقي..

ألفة أخبرتني من قبلُ بأن بانا تقع في قلبي وأنها تتضاءل بتـضاؤله.. فكيف الحال إذًا وقد انتهى قلبي وانتهت بانا؟!

فقدت معـين وفقـدت ألفـة وفقـدت بانـا ولم يبـقَ لـي سـوى واقـع لا

أعرفه.. وسط أشخاص لا أعرفهم..

لماذا لم يخترعوا آلة الزمن حتى الآن؟ سأكون أول المتطوعين لتجربتها حتى لو أذابتني أو حوّلتني لذرات متناثرة في الفضاء السرمدي..

إذا نجحت التجربة سأعود إلى ما قبل السنة.. سأغلق سماعة الهاتف في وجهه عندما يتصل.. لا، سألغي فكرة إرسال القصة الغبية التي خططتها على ظهر التذكرة إلى هذه الجريدة الغبية من الأساس..

كيف يتحمل البعض فكرة أنهم بغرورهم وصلفهم قد جعلوا الآخرين يفكرون في العودة بالزمن لإنهاء كل وجود لهم من حياتهم؟

كيف أُشفى من إحساسي الحالي بالغيظ والقهر من قلة حيلتي وهواني على من أحببت يوما؟

كيف سمحت لنفسي بالتضحية بقلبي، أغلى شيء لي، الذي يضم بانا – موطني الحقيقي – من أجل شخص لم أرَه حتى من قبل ولم تحبه ألفة أبدا ولم تحبه عرائسي ولم تحدثني عنه النجمات؟

* * *

هذا ما كتبته في عيد ميلادي السادس والعشرين

أعرفها جيدا.. تأتيني قبل الفجر تماما.. فأغمض عينيَّ مستنجدة.. تأتي دائما في ساعة الذئب.. يقولون: إن الجسم يكون في أوهن حالاته ويصبح

أكثر عرضه للإصابة بنوبة قلبية أو عشقية، أيهما أصدق..

يؤلمني قلبي فأضع يديَّ الاثنتين عليه ليخفت الألم.. تصعد روحي إلى حلقي فأشرب كوبا من الماء بعد أن أقرأ عليه اسمك.. أعود إلى السرير محاولة النوم فتأتيني في الحلم.. أقول: اذهب، أريد أن أتنفس.. فتتحول إلى نفسي المقبل.. أشهقك.. تأبى الزفير..

لا أحب الكتابة الرومانسية.. أهرب منها فأفكر فيك باعتبارك جنيا أو مخلوقا فضائيا يستحوذ على روحي.. صدقت نبوءتي إذًا في كوني أول من ستقابل فضائيا.. ربما الخيال العلمي أفضل من الرومانسية في مثل هذه الحالات..

ألقي السلام كل صباح على كوكب الأرض ليعرف أني مجرد ضيفة عليه.. سأرحل يوما معك إلى كوكبك البعيد.. فيضج الكوكب بالضحك.. أسبه وأعود للرومانسية البغيضة مرة أخرى..

تقول: أنا حزين..

أرسم على وجهي بألوان البلياتشو وأنفث فقاقيع الصابون في المكان فتبتسم.. أبتعد.. تحزن من جديد.. تقول: لا تستطيعين إخراجي من حزني..

أمسح الألوان من على وجهي وأدق وشم الغجريات.. أمسك بورقة

وأقصها «عروسة».. أثقبها بدبوس مرددة: «من عين فلان.. ومن عين فـلان.. ومن عين فلانـة عشر مرات».. تضحك..

أحرقها أمامك وأقول: «أهو شفت وش فلان.. مش قلتلك محسود؟».. أضع يدي على جبينك وأقول: «بسم الله أرقيك من كل شيء يؤذيك»..

تمسك برأسـي وتقبّلـه.. فأمـسك بكـف يـدك لأقرأهـا.. أقـول: أرى زحاما.. زحاما كبيرا وأنت في المنتصف..

تكمل: إذًا أنا مفقودٌ مفقودٌ مفقود..

أجلس بجوارك.. لا تنظر إليَّ.. يعجبني الزمان هكذا.. ليت هنـا زر «بوز» ليبقي الوضع على ما هو عليه.. لا أريد شيئا سـوى أن تكـون بجـواري يفصلني عنك 25 سم.. أنظر إليك.. أشم رائحتك.. ربما تتوقف تلك الأزمات عن المجيء.. تقول: بل 30 سم.. أنتِ غير دقيقة كعادتـك. أنظـر إليـك ولا أرد..

فقـاقيع الـصابون لا تـزال تحلـق في المكـان.. تـنعكس عليهـا آلاف الوجوه.. أفجرها واحدة واحدة.. أقول: فيـه نـاس كـتير لكـن بيـصير مـا في غيرك.. تقول: أنا وحدي إذًا.. تذهلني قدرتك على تطويـع الكـلام لـصالحك فيؤلمني قلبي من جديد..

تصحبني إلى المنزل.. أقول: أراك العام المقبل..

تقول: ربما بعد نصف عام..

- سأختار أنا المكان.

- ليكن.

تبتعد..

تقول: لا تستطيعين إخراجي من حزني..

أقول: وليكن.. أنت تستطيع إدخالي إليه.

* * *

الثانية والنصف صباحا.. أطفئ أنوار المنزل كلها وأجلس في الظلام.. هناك دائما خيط دخان يصاحبني.. من فنجان قهوة أو قدح شاي.. ربما سيجارة.. دخان ما في الظلام يجعلني أشك في ما يحدث حولي فعلا.. ربما أحلم.. ربما هي هلوسة طويلة نوعا..

قلت لك ذات يوم: ليتني ما قابلتك.. ربما من الأفضل أن يتم التعامل بيني وبين نفسي من الآن على أن ما حدث كان في عقلي فقط.. محو ما بيننا لن يكون بهذه الصعوبة؛ فلا أحد يعرف عنا أي شيء.. لا يوجد منك عندي سوى تذكرة سفر تؤكد قدومك ذات يوم.. وغلاف شوكولاتة.. أحمد الله أن أغلفة الشوكولاتة لا يمكن الكتابة عليها عكس تذاكر السفر وإن كان من الصعب تمزيقها مثلها.. ثم أتذكر أن أغلفة الشوكولاتة جميعها تتشابه..

أغلفة الشوكولاتة لا يُسجل فوقها تاريخ تناولها..

ربما أتظاهر بأنها ليست لك.. أو أنك لم تلمسها يوما وأنت تبتاعها لي.. صورتاك في الحافظة وعلى الهاتف يسهل محوهما.. لا شيء أسهل من المحو إن استطعت إليه سبيلا.. في كل مرة أتوقف طويلا أمام زر الـ«ديليت» ولا أستطيع.. تطاردني نظرة عينيك مذكرة بأنك كنت.. لتظل.. فألقي بالهاتف بعيدا وأصمت..

أحب الكتابة في الظلام حتى لا أرى ما أكتبه.. تقول: وكيف ترين السطور إذًا؟ أرد بأنني لا أحتاج لسطور على كل الأحوال.. خطي مائل مثل حظ صاحبته.. تضحك..

أتذكر ضحكتك وعينيك الضيقتين اللتين لا تنظران لي أبدا ولحيتك البنية الغريبة.. فأمسك الهاتف لأحادثك.. أصعب ما في محادثتك صوت الجرس في البداية.. صوت الجرس البارد المستمر.. أتجمد حتى ينقطع مع كلمة «لا يوجد رد».. أنتظر قليلا معجزة ظهور اسمك على الهاتف فلا تحدث..

* * *

الليل طويل.. أضغط على زر إعادة «البلاي» ليست الدائمة للبداية.. تقول أنغام: «وأنا لوحدي بفكر فيك».. أفكر فيك طوال الوقت.. أكلم الجميع أضحك وأبدو على ما يرام.. وصورتك تغطي كل تفاصيل محدثي.. أخطئ في

الاسم دائما لأقول اسمك فيتظاهر الجميع بعدم الملاحظة.. اسمك.. أكتبه كثيرًا جدًّا على الصفحات الفارغة علّ اسمك يُحضرك.. فلا تحضر..

كنت أتمنى أن تكون هذه قصة حب تقليدية.. ربما حينها كنت سأتحدث عن حرقة فراقك.. لا أستطيع.. أصب القهوة دون أن أرى جيدًا في الظلام وأعود مترنحة إلى مقعدي.. أتظاهر بأنك جواري في الظلام وأتحدث.. في الظلام كل شيء يمكن حدوثه.. ربما تكون أنت هنا بالفعل إلى جواري دون أن أراك..

أحكي لك عن هذا الصباح.. العيد مرة أخرى.. وأنا أكره الأعياد.. الشوارع الممتلئة بناس لا أدري من أين أتوا وكأنهم خُلقوا للتو بالملابس الجديدة والابتسامة الدائمة على وجوههم.. أيخدعنا الله ويرسل إلينا أشخاصا مبتسمين صبيحة الأعياد لإجبارنا على السعادة هذا اليوم؟ لماذا يصر الناس على الاحتفال بأي شكل؟ لماذا لا يوجد عيد للحزن.. يصمت فيه الجميع، يبكي فيه الجميع في الشوارع دون حرج.. عيد أستطيع فيه احتضان جارتي في الأوتوبيس مواسية دون معرفة اسمها أو قصتها؟

أصعد إلى السوبر ماركت وحدي.. أقف أمام واجهات العصير مخمنة ماذا كنت ستفضل.. أختار علبتي عصير تفاح أخضر وعلبتي لبن.. أشتري لك قطعة شوكولاتة.. أضع لنفسي خط أمل ربما تأتي يوما ما فأريك كل قطع

الشوكولاتة التي ابتعتها لك.. لتعرف أنني لم أتوقف عن التفكير فيك..

* * *

أمشي حاملة أكياس البقالة في الشارع.. تقتلني التفاصيل.. التفاصيل الصغيرة التي لا أتوقف عن ملاحظتها.. لا أستطيع التوقف عن قراءة كل اللافتات على جانبي الطريق.. الأوراق المتناثرة هنا وهناك.. أسماء المحلات.. عناوين الجرائد.. أرقام العربات المارة.. فتارين المحلات.. أوراق الشجر المتساقطة.. ظللت خمس سنوات طيلة دراستي في القاهرة أسافر في القطار لا أفعل شيئا طوال الطريق سوى النظر من الشباك للحصى بين القضبان.. أرى أغلفة الشيبسي والعلب الفارغة الملقاة.. حذاء طفل أنسج حوله مئات السيناريوهات حسب حالتي المزاجية.. مفاتيح قديمة.. أغطية أقلام.. أكواب بلاستيكية وبقايا طعام.. أعد الأشجار على جانب الطريق حتى أصل.. بين القاهرة وطنطا هناك **2645** شجرة على جانب واحد.. مندهش؟ يمكنك عدّها لتثبت أنني كاذبة.. من ضمنها أشباح أشجار.. الأشجار التي يقطع الفلاحون من قشرتها جزءا لعمل «راكية الشاي» مساءً تكون ميتة القلب.. لا تعرف هذه المعلومة؟ الأشجار مثلنا تماما.. يكفيها خدش في القلب لتموت.. لكنني لا أستطيع تمييز الميت من الحي طالما ظل واقفا..

لماذا لم أرَك في القطار؟ ربما كنت ستعد معي الأشجار وتصحح العدد لي.. ربما استطعت أنت تمييز الحي منها من الميت.. ربما شاركتني فكرة

مجنونة في النزول في محطة ليست محطتي.. في التوهان قليلا في بلاد لا أعرفها.. متأخرة.. أنا متأخرة دوما عن الأمور المهمة في حياتي.. لأندم على تفاصيل صغيرة حدثت ربما لو لم تحدث لكنت الآن معي في النور وليس الظلام..

* * *

عندما استيقظت من النوم هذا الصباح شعرت بأن صدري فارغ تماما، لم يكن هذا الشعور مجازيا بل بالفعل لم أشعر بوجود شيء في صدري.. لا رئتان، لا نبضات قلب، لا أتنفس.. فراغ رهيب أسفل قفصي الصدري جعلني أتساءل: أين ذهب قلبي ورئتاي؟

فكرت في كل الأماكن التي ربما ضيعتها فيها دون أن أدري.. قررت النزول من البيت والمرور على كل الأماكن التي ذهبت إليها مؤخرا.. ذهبت إلى المقهى نفسه بجوار المحطة التي سمعت فيها عبارة «مش هينفع نكمل».. جلست هناك على هذا المقعد الأزرق نفسه وحدي أتأمل الفراغ قبل أن أنهض بهدوء وأقوم بإلقاء حظاظة سوداء مستعملة كنت أرتديها لفترة طويلة من الوقت في سلة المهملات بجوار الباب، قبل أن أكمل طريقي للخارج.. نظرت إلى السلة فوجدتها هناك.. رئتي اليمنى ملقاة وسط القمامة بجوار الحظاظة.. انتشلت رئتي وحدها ونفضتها بلا مبالاة وخرجت..

في محطة القطار.. هذه هي المرحلة الأصعب.. تُرى في أي قطار من كل

هؤلاء يمكن أن أكون نسيت رئتي اليسرى؟

نظرت في كل القطارات.. أسفل جميع الكراسي.. بين العربات.. في البوفيه الصغير الذي اعتدت شرب الشاي فيه..

كنت قد بدأت أيأس عندما جاءتني النجدة على هيئة مفتش القطار.. قال لي: ما جمع رئة؟ قلت: رئات.. قال: برافو.. أخذني من يدي للمفقودات.. هنا يترك جميع العابرين أجزاء من ذاتهم.. وجدت رئتي اليسرى ملقاة أسفل بعض الأوراق وأعقاب السجائر وأجزاء من القلوب الرمادية المتعبة..

أما قلبي أنا فلم يكن هناك.. أين يمكنني أن أجده إذًا؟ المشكلة أن هناك الكثير من الاحتمالات لذلك.. بداية من وسط البلد مرورا بالزمالك.. جميع فروع سيلانترو.. كوستا الجامعة الأمريكية.. ديوان.. شارع البحر في طنطا.. شارع حسن حسيب في طنطا.. بيتنا.. كافيه أكسجين.. كشك أم سماح.. القهوة الأحمدية.. الهرم.. إسكندرية.. المطار.. هارديز التحرير.. الأوبرا.. قطر تمانية وربع.. شارع العيادة الشاملة.. السيد البدوي.. السلطان حسن.. كنيسة سانت تريز.. بيت السحيمي.. الخليفة المأمون.. بن شاهين.. أون ذا رن.. العجوزة.. كافيه ستيشن.. الحرية.. مصر الجديدة..

كيف سأستطيع المرور على كل هذه الأماكن؟ وماذا لو لم يكن فيها من

الأساس؟ في اليوم الثاني كانت رئتاي تشتكيان من عدم وجود قلبي بجوارهما.. أخبرتهما بأنهما ستتعودان على عدم وجوده كما تعودت أنا..

تذكرت الآن أن نصف قلبي أخذته ألفة قديما.. والنصف الآخر تسلى عليه معين.

معين..

ذو اللحية البنية الغريبة..

جاء ليأخذ نصف قلبي ويرحل فقط..

* * *

في سن السابعة والعشرين انتهى كل شيء..

انتهت حصيلتي من الخيال، أو أنه هرب بعيدا عني، لا أعلم بالضبط ما حدث..

كل ما أعرفه أنني بين ليلة وضحاها، وبعد أن أتممت عامي السابع والعشرين، انتهيت..

لم أعد أسرح بخيالي بعيدا كما كنت أفعل طوال عمري، اختفى البريق من عيني وصرت لا أبتسم، صامتة معظم الوقت، أنام، أصحو، أعمل طوال اليوم بتركيز، آكل بحركات آلية، أرتشف القهوة، أتمشى قليلا، أنام، أصحو..

لم أعد أذكر بانا، لم أعد أمشي في السماء، لم أنظر حتى إلى النجمات منذ ما يقارب الثلاثة أشهر.

صارت السماء بعيدة جدا، ملامحي لم تعد كما كانت، وبشرتي الشاحبة صارت أكثر شحوبا.

أشاهد الأفلام الآن دون اختراق شاشة التليفزيون، أقرأ الكتب دون تذكر أحداثها، أمشي في الشارع، لم تعد ألوان المباني تثير انتباهي، توقفت عن قراءة اللافتات، لم أعد أستطيع التحدث مع دمى العرض في الفتارين.

انتهيت تماما، أنا كما أي شخص آخر يمشي الآن بجواري، ينام، يصحو، يعمل، يأكل، يشرب، يقابل الأصدقاء، ينام، يصحو..

أجلس وحدي في بيتنا الذي لم يعد عامرا.. بيتنا الذي يقع فوق الباب الخشبي الذي يحرسه عاثر والذي أتذكر عنه كل شيء الآن بوضوح.. هناك في بانا التي كنت أعتقد أنني قد نسيتها.. تركت غمازتيّ.. وبعضا من نظري.. وشعري الطويل وحرف الراء..

تركت كشكول استيكراتي.. وجدتي نور وجدتي كريمة.. ومحمد كريم.. وألفة..

تركت عاثر وتركت جاك وأدهم صبري وعلاء عبد العظيم.. وتركت أحلامي وتركت برطمانات النجمات التي جمعتها حتى فرغت السماء..

تركت ماضيَّ كله ولحقت بعالم لا أنتمي إليه أضاعني وأضاع نصف قلبي..

كيف سأعود إلى بانا؟ كيف ستعود إليَّ ألفة؟

كيف سأستعيد بعضا من ابتسامتي المفقودة منذ ثلاث سنوات؟

لم أفتقدني؛ فأنا لا أذكر كيف كنت، أذكر فقط بعض العرائس التي اعتدت اللعب بها، ورائحة الذرة المشوية، أغنية كانت تذاع في الراديو أثناء طلاء البيت مرة من ذات المرات قديما، صارت الأغنية لها رائحة الدهان اللاذعة، أحبها كثيرًا.

مشينا كتير..

تعبنا كتير..

مشينا لوحدينا تعبنا..

أنظر في المرآة، هذه ليست أنا، أين ذهبت؟ كيف تحولت إلى هذا الجسد الميت والروح المنطفئة؟ لماذا يتزايد لديّ الوجع كل يوم أكثر؟ لماذا لم أعد أتحدث سوى على لوحة مفاتيح الحاسب؟

عرفنا الخوف..

في عز النور..

وبقينا نخاف من حبايبنا..

قد أنذرتني ألفة قديما لكني لم أهتم..

لا أرى أحدا ولا أفكر في أحد، أصبحت الشخصيات والأحلام والواقع والخيال مصطلحات جامدة لا تعني لي شيئا. أقرأ الأخبار وأشاهد المناظر المؤسفة فلا أتخيلني أنقذ العالم ولا أهرع لمساعدة الآخرين، أخذ مني الخيال كل يوم قطعة حتى ذبلت، لا شيء بلا ثمن، لا شيء بلا ثمن حتى الخيال.. هكذا علمتني ألفة..

ضيعنا أحلى سنين..

وازاي هنقدر يوم نرجع؟

ده احنا يا دوب عايشيين

والدنيا دوامة بتخدع..

مع الأغنية أتذكر الآن شيئا فشيئا..

ألفة؟ ألفة؟ أين سمعت الاسم؟ كيف قفز إلى ذهني فجأة بعد كل هذه السنوات؟ هل كانت حلما؟ أسأل أمي عن بائعة الحلوى التي استأجرت الغرفة الصغيرة بحوش منزلنا قديما فلا تتذكر.. أحكي لها بصبر عن الباب الخشبي والفتحة الصغيرة والسيدة التي ترتدي السواد، السيدة التي أنقذتني عندما وُلدت.. لا تتذكر.. كيف لا تتذكرين منقذة ابنتك؟ تقول: جدتك هي من فكت الحبل السري عن رقبتك عندما وُلدتِ.. أغضب بشدة.. لماذا تكذب

عليّ أمي؟ هل تكره أن أستعيد خيالي؟ أقول: جدتي هي من أخبرتني أن ألفة فعلت..

أغادر البيت غاضبة، أقفز على درجات السلم وأغلق البوابة الحديدية الصدئة، أنظر خلفها، لا يوجد شيء.. أين ذهب الباب الخشبي؟ أقرب أذني من الحائط.. كان هنا، أنا متأكدة.. لا أسمع شيئا، لا صوت، لا صهيل، لا خوار.. أين ذهب عاثر؟

أمشي بخطى ثقيلة وأغادر الشارع كله، فكرة كوني أحلم تقتلني بعد كل ما حدث لي من صدمات، خذلني خيالي وخذلتني أفكاري وخذلني عقلي، وأصبحت الآن محكومة بالعيش في الواقع للأبد.

أقف لشراء الذرة المشوية من عربة بشارع كبير جدًّا بزوج من الجنيهات، ألتقط الحبات بيدي، يزعجني طعمها المحايد وجفاف حباتها.. أين هذه من أكواز العسل؟

أكواز العسل؟ أتذكر بائعة الذرة ذات الحاجبين الأزرقين، أتذكر شيئا ما بخصوصها لا أدري ما هو بالضبط، أندفع إلى البيت وأنظر أسفل السرير لأجد الحقيبة القديمة المتربة، أعرف أنها مغلقة على كل عرائسي وعالمي الذي عشت فيه طويلا.

أفتح الحقيبة بيد مرتعشة وأخرج ما بها، عرائسي المتربة تنظر لي

بحزن، أشعر بها تلومني على الغياب، أبحث في الحقيبة أكثر لأجدها.

المرآة المربعة مكسورة الطرف تدمي أصابعي ولكني لا أهتم، كانت صافية جدا، صافية بشكل مريب، آخذها وأنطلق إلى سطح البيت الذي لم أعد أصعده سوى بعض المرات القليلة.

أضعها أسفل أنفي لأمشي على السماء، لا شيء، السماء لا تزال فوق رأسي ولا أثر للنجمات، أتذكر كل شيء.. الآن أريد العودة إلى بانا.. أريد ألفة.. أريد عاثر.. أنادي عليهم جميعًا وأنا أبكي.. أبكي كثيرًا جدًّا والدم ينز من إصبعي بلا توقف على المرآة الصافية.

لا أعرف كيف نمت ولا متى صحوت.. فقد فتحت عيني لأرى ألفة واقفة أمامي كما كانت تظهر في بانا، بالفستان الأبيض ذاته وغطاء الرأس اللامع على رأسها..

تبتسم لي فأنتفض واقفة، تقول: تريدين العودة إلى بانا؟

– أريد المشي على السماء مجددا..

– ولكن هناك ثمنا..

– أعرف.. لا شيء من دون ثمن..

– هذه المرة الثمن فادح..

تخبرني بالثمن فأصمت قليلا.. وأوافق..

هذه المرة كنت متأكدة من النتيجة، أضع المرآة أسفل أنفي فتنتقل السماء تحت قدميّ، أسير بين النجمات، أركل القمر بقدمي فيتدحرج ثم يعود إليّ مبتسما، تثير ابتسامته الأمواج على الأرض فترتفع مقهقهة، تغسل الشواطئ والشوارع والبيوت والهواء وتعود منحسرة إلى مكانها.

من بعيد، أرى بانا تتوهج بالأضواء وسط السماء.. لا أعرف متى صعدت إلى السماء لكنها موجودة.. موجودة وحقيقية تماما، هناك يقف إيهاب لاستقبالي مع مريم وآية وكريم وسالي، حازم وبراكسا ومهرة وأريج يبتسمون في وجهي، جدتي تسقي فطيرتها البركة ربع فنجان شاي وتمشط شعرها الأسود الطويل وتبتسم، ألفة بجواري تقودني برفق إلى عالمي الحقيقي من جديد.

عاثر يخبرني أنني لا أحتاجه بعد الآن؛ فأنا اليوم أطير، أتجه نحو بانا لأجدهم كلهم بالفساتين الملونة ينتظرونني، أنا لا أزال بالجينز والقميص البني ذي الأكمام، أكتشف أنني لا أملك أي فستان، يقولون لي ألا أبالي، سيفصلون لي غيره وسيطرزونه بالنجوم والكويكبات اللامعة الصغيرة.

الفتاة الصغيرة التي كانت تتجول في السماء طوال عمرها.. هي الفتاة الكبيرة التي ظنت أنها نسيت فساتينها في البيت القديم.. وبرطمان النجمات

أسفل الـسرير.. وشـكل الـسماء سـاعة الـشروق، وطعـم المطـر قبـل أن يمـس الأرض، قررت اليوم أن تصعد إلى السماء.. ولا تعود..

طنطا – 2014/2/21